د. نبيل فاروق

رجل المستحيل

أوراق لم تنشر





د. نبيل فاروق

رجل المستحيل ......

أوراق لم تنشر

ذكريات عديدة ، أزدحم بها رأسي ، مع سنوات العمر ، التي تتسرب دون أن نشعر بها .

ذكريات عن الشباب ، والكفاح والرجل .....

رجل المستحيل .....

وبعض الذكريات تسربت أيضاً ، إلي أوراق كتبتها ، ونشرتها في مطبوعات مختلفة ...

وبعضها لم ينشر ...

حتى لحظة كتابة هذه السطور ...

ففيها ستجد رجل المستحيل وأوراق ...لم تنشر

د. نبيل فاروق

رقم الإيداع 2008/2716

الناشر
المؤسسة العربية للإبداع
15 ناصر الثورة ـ الهرم
(+202) 35843711 - 0122722288

سعر الكتاب
٥٠٠ قرش

رجـل المستحيـل..

(أوراق لـم تنشـر)

تأليـــف

د. نبيـــل فـــاروق

الإخراج الفني

نجوان عبد المحسن

متابعة انتاج

مصطفى درويش

الناشـــر

المؤسسة العربية للإبداع

١٥ ش ناصر الثورة - الهرم

ت / ف: ٣٥٨٤٣٧١١ / ٠٢



الأولـــــــــة...

على الرغم من غزارة ما كتبته، خلال أكثر من عقـــدين من الزمان، ومن مؤلفات تجاوزت الخمسمائة عنوان، ما بين رواية، وقصة، ودراسة، ومجموعـــات قصـــصية قـــصيرة، وعشرات من المقالات، حول الجاسوسية والمخـــابرات، مـــا زالت كل وسائل الإعلام تصرّ على تعريفي، باعتباري مؤلف سلسلة (رجل المستحيل).. ومؤخرًا، وربما قبيل أيام قليلـــة، من بدء كلمات هذا الكتاب، التقى بي باحـــث، يعـــدّ رســـالة ماجستير، حول تأثير البطـــولات الروائيـــة علـــى الـــشباب والناشئة، وفاجأني بمجموعة من الحقائق، لم أكـــن أدركهـــا، وأهمها أن (رجل المستحيل) هو الشخصية الروائية البطولية الوحيدة، في تاريخ الأدب العربي كله، وكل ما عداها عبـــارة عن سير لشخصيات وبطولات، تم سحبها من بساط التاريخ، وإضفاء صفات وسمات مبالغة عليها..

معظم الدول لديها أبطال خـــارقون، مثـــل (ســـوبرمان) و(باتمان) في (أمريكـــا)، و(جـــيمس بونـــد) و(طـــرازان)

و(شيرلوك هولمز) فى (إنجلترا)، و(أرسين لوبين) فى (فرنسا)، وليس لدينا سوى (أدهم صبري)، أو (رجل المستحيل)، فى العالم العربى كله..

وعلى الرغم من أن هذه حقيقة، توصّل إليها باحث محايد، وأيّدها بحقائق وكتب ومستندات، إلا أن مجرد ذكرها هنا، قد يدفع المئات إلى اتهامى بالغرور والتعالى، كما سبق أن فعلوا، عندما أشرت إلى تعاقدى مع شركة إنتاج أمريكية، لتحويل سلسلة أخرى، وهى (ملف المستقبل)، إلى حلقات تليفزيونية، من الخيال العلمى..

ولقد هوجم (رجل المستحيل)، وهوجمت أنا معه بالطبع، لمجرَّد أن أحدًا من السادة النقاد المحترمين لم يحاول قراءة مغامراته، ولم يبذل أدنى جهد؛ لفهم سر شعبيته وانتشاره..

كل كتاب الجيل القديم - تقريبًا - اتخذوا موقفًا معاديًا من كتبى، واتهموها بأنها أدب سطحى وتافه، لمجرَّد أنها تصدر فى طبعات صغيرة أو شعبية، أو لأن عناوينها مثيرة وسريعة الإيقاع، وكأنما كان المفترض أن تصدر مغامرات الشخصية البطولية العربية الوحيدة، بعناوين رصينة مركَّبة، مثل (الإحالة والاستحالة فى أدب المغامرات الخيالية).. أو

(المنعكسات الفكرية فى المغامرات المخابراتية) أو غيرها، ليدرك نقاد العهد البائد، أن المحتوى قد يحوى نوعًا من الثقافة، لا يقلّ عن ثقافتهم، وإن اختلف عنها..

ولأننى منشغل طوال الوقت، بالبحث عن أفكار جديدة، وبمتابعة الأحداث المشتعلة، فى كل أرجاء العالم، وإيجاد وسيلة لتقديم مفهومى عنها، عبر مغامرات (رجل المستحيل)، فقد تجاهلت كل أنواع الهجوم، واكتفيت بالنقد الحر غير المغرض، الذى يرسله القراء فى خطاباتهم، وأظنهم أول من يشهد على أننى كنت أنشر كل خطاباتهم، سواء تلك التى تمتدح أعمالى، أو تلك التى تهاجمها، ولم أحجب قط، سوى العبارات الخارجة، التى كان يستخدمها البعض، والتى تكون موجَّهة لخصومى فى معظم الأحيان، فأنشر الخطابات كلها، وأضع بعض النقاط، فى موضع ما لا يصح نشره منها..

وأكاد أزعم هنا، وهذا ليس غرورًا، أنه ما من شخصية لاقت تعنتًا وتحفزًا، واستبدادًا، ومحاولات استيلاء وهيمنة، مثل شخصية (رجل المستحيل)، فحتى أقرب الناس إلىّ، بذلوا جهودًا غير عادية، وقاتلوا فى معارك استبدادية ظالمة، فى محاولة للاستيلاء على الشخصية، وحرمانى من حق استغلالها..

ومع كل ما خضت من معارك، لم أستسلم لحظة واحـدة، وقرَّرت أن أموت لو اقتضى الأمـر، دون أن أتخلـى عـن (رجل المستحيل)، مهما كلفنى هذا من جهد وعرق ومال..

ولأن الله (سبحانه وتعالى)، لا يضيع أجـر مـن أحسن عملاً، فقد سخر لى كل من قابلت، ليتعاونوا معى مخلصين، ولينصرنى على كل من حاول الاستيلاء علـى حقـى، وإن دفعت الثمن من شبابى وصحتى وأعصابى..

واليوم، وأنا أمسك قلمى، لأورى الرحلـة مـن بـدايتها، قرَّرت أن أبدأ بصلاة شكر للخالق (عزَّ وجلَّ)، على ما أنعم به علىَّ، من موهبة وعلم، وحب ملايين القراء، فى كل أنحاء العالم العربى..

وبعدها، دعونى أروى لكم رحلتى الشاقة مع القلم..

ومع الرجـــل..

رجل المستحيل..

د. نبيل فاروق



١) أيـــام زمـــان..

"مع الظلام المخيّم على المكان، أشعل (لوبين) لفافة من التبغ، ونفث دخانها فى الهواء، ثم توارى خلف دولاب ضخم، ليراجع الخطة البارعة التى وضعها، وقبل أن يشرع فيها، سمع وقع أقدام تقترب، فأسرع يتوارى خلف دولاب كبير، وتطلّع إلى الباب، حيث دخل كرش ضخم، يتبعه المفتش (يل)، و..."..

انحبست أنفاسى، وأنا بعد فى الثانية عشرة من عمرى، مع تلك الأحداث المثيرة، فى روايات (أرسين لوبين)، ذلك اللص الظريف، الذى كان يبهرنا كثيرًا بمغامراته، وجرأته، وخططه الخرافية المتقنة، لسرقة أغلى التحف والمجوهرات وغيرها..

وعلى الرغم من أن (لوبين) هو مزيج من عدة مجرمين، فهو سارق، ونصاب، ومحتال، ومزوِّر، لا يشق له غبار، ويرتكب كل موبقات الدنيا، إلا أننا كنا نعشق قراءة مغامراته المثيرة، ونتتشى بالفقرات التى يترك فيها بطاقته

خلفه، فى موضع السرقة، وكأنما يتحدَّى رجال الشرطة، ويعلن تمّرده عليهم، وانتصاره الساحق على رجال الأمن، والذى كان يشبع فى أعماقنا مقتًا مكبوتًا لرموز السلطة الاستبدادية فى بلادنا..

ولم تكن مغامرات (لوبين) هى الوحيدة، التى تبهرنا فى ذلك الحين، بل كانت واحدة من عدة مغامرات، لأبطال غربيين، يحملون سمات لا تتفق حتمًا مع تقاليدنا وقيمنا الشرقية والعربية..

كانت هناك أيضًا مغامرات (شيرلوك هولمز)، ذلك البوليس السرى البريطانى، ذى الغليون الشهير، وصديقه الدكتور (واتسن)، الذى يروى كل المغامرات عن لسانه، والذى يشرح لنا بأسلوب مدهش وعلمى ومنطقى ومرتب، كيف يكشف (هولمز) الجرائم، عبر شعرة رأس، أو بصمة قدم، أو خيط صوفى، أو حتى أنفاس قاتل على زجاج سيارة..

ومع (هولمز)، عشت عالم الجريمة، وصراع الخير مع الشر، وعبقرية البحث عن المجرم، وتعلّمت الكثير، والكثير جدًا..

ثم ظهرت روايات (روكامبول)... وشخصية (روكامبول) تسبق كل الشخصيات الأخرى، وربما كانت الأب الشرعى لكل ما ابتكرته عقول المؤلفين بعدها، من شخصيات بطولية روائية، فقد بدأ حياته كلص منعدم القلب والضمير، لا يعرف الرحمة أو الشفقة، ويستبيح الأعراض والدماء، دون ذرة من الإنسانية، ثم هزمه الحب العميق، وحوّله إلى مقاتل غامض، يقاتل فى سبيل الحق والخير، ويفنى نفسه، من أجل الآخرين..

وكان (روكامبول) فى رواياته وسيم، جرئ، قوى، مغامر، يجيد عدة لغات، ويتقن التنكّر إلى حد مدهش، كما كان أستاذًا فى استخدام خنجره وغدّاراته..

وعلى الرغم من حقارة شخصيته، انبهرت به تمامًا فى صباى، وعشقت كل مغامراته، وصرت أحلم به، وأتخيّل هيئته، التى تختلف من كتاب إلى آخر، ومن مغامرة إلى أخرى..

وفى الوقت ذاته، كنت أعشق روايات (لوبين)، وقضايا (هولمز)، وأقرأ بنهم مجلات (سوبرمان) و(باتمان) و(طرازان)، وأحجز أول مقعد، فى أى فيلم جديد، من أفلام (جيمس بوند)..

أيامها، كانت هناك عدة شخصيات مثيرة، تغمرنا بها المجلات، والروايات، وأفلام السينما، وحلقات التليفزيون، مثل (فلاش جوردون)، و(فانتوماس)، و(الفارس المقنّع)، و(زورو)، و(المغامر الطائر)، و(فتاة الأدغال)، وغيرها..

وكنا مبهورين بها كلها، بلا استثناء، ونتابعها فى نهم مابعده نهم..

وعندما بلغت المرحلة الثانوية، كانت معظم هذه الشخصيات قد جفّت أو لم تعد تثير اهتمامى، وبرزت شخصية جديدة، أو شخصيتان لهما بريق مختلف..

مس (ماربل)، و(هركيول بوارو)..

شخصيتان ابتكرتهما الرائعة (أجاثا كريستى)، وقدّمتهما فى سلسلة من القصص البوليسية، التى اعتمدت على تحليل الشخصيات، والتركيبات المنطقية للأحداث، بأكثر مما اعتمدت على أدلة مادية، تتواجد فى مسرح الجريمة، أو حول القاتل..

وكان هذا تحوّرًا فى شخصيتى ونمط تفكيرى أيضًا.. فى تلك الفترة، كنت أكثر اهتمامًا بروايات الرعب والخيال العلمى، منى بروايات المغامرات والشخصيات الخارقة..

وكان يشاركنى اهتمامى هذا صديقى الدكتور (محمد حجازى)، الذى عرفته فى سنوات الطب الأولى، وكانت لنا حكايات عديدة معًا، والذى أصبح الآن طبيبًا شرعيًا بارعًا، عاشقًا لمهنته..

وذات يوم، كنت أستذكر دروس كلية الطب، ومعى (حجازى)، فى حجرة واسعة، كنت أقيم فيها، فى منزل جدى، وكنت قد ابتعت كتابًا جديدًا، للكاتب الراحل (جلال الحمامصى)، أتلهَّف على قراءته، فشعرت بالحنق؛ لأننى مع كثرة ما نستذكر، لست أجد وقتًا لهذا، فهتفت فى مرارة، متمنيًا أن يرتبط عملى ذات يوم بالقراءة..

ويبدو أن باب السماء كان مفتوحًا - كما يقولون - فى تلك اللحظة، إذ دارت الأيام، وأصبحت مهنتى مرتبطة تمامًا بالكتابة.. والقراءة..

وفى أيام الكلية، كان الكل يعرف أننى رسَّام، أقدِّم مجلة كاريكاتورية كل أسبوع، وأقيم المعارض الفنية، وتنتشر رسومى فى كل مطبوعات الجامعة، وفى حفلاتها، ومؤتمراتها، وفى حجرة الجوَّالة.. وقليلون جدًا من عرفوا أننى أعشق التأليف والكتابة أيضًا..

رسومى كلها كنت أقدِّمها للجميع، وأضعها فى مجلات حائط، وأضع توقيعى عليها واضحًا، فى حين كانت مؤلفاتى تقبع دومًا فى درج مكتبى، لا يقرأها سوى صديق أو اثنين..

وذات يوم، شاهدنى خالى منهمكًا فى الكتابة، فسألنى عما أستذكره، وعندما أخبرته أننى أكتب قصة، ارتفع حاجباه فى دهشة مستنكرة، ثم انطلق يضحك، ويسخر من الفكرة، ومن أننى أعتبر نفسى كاتبًا!! (وبالمناسبة، وهو يفخر - لحظة كتابة هذه السطور - بأننى ابن شقيقته)..

ومع سخرية المقربين، لم أحاول نشر أعمالى الأدبية، أثناء فترة الجامعة أبدًا، وإنما على العكس تمامًا، كنت أخفيها، وأملأ بها كشاكيل سرية، ما زلت أحتفظ بها، حتى يومنا هذا..

حتى عندما رشحت نفسى لاتحاد الطلاب، اخترت اللجنة الفنية، وليس الثقافية، ونجحت بجدارة، فى كل انتخابات خضتها، حتى أصبحت أمينًا للجنة الفنية، وعضوًا فى مجلس الاتحاد..

ومن المؤكَّد أن من عرفونى فى المرحلة الثانوية، قد أدهشهم ما آل إليه حالى، فى فترة الدراسة الجامعية، فقد

كنت، وحتى الصف الثانى الثانوى، منطويًا منعزلاً خجولاً، لا أجيد سوى لعبة الشطرنج، وصداقاتى محدودة، دون أية نشاطات مفتوحة على الإطلاق..

ثم حدث تحوّل عجيب، خلال الأجازة الصيفية، ما بين الصفين الثانى والثالث الثانوى..

ففى خلال دراستى الثانوية، كنت أعشق الرياضيات والفيزياء، وفى امتحان نهاية الصف الثانى، وضع مدرس الفيزياء مسألة شديدة التعقيد، لا يمكن حلّها بقوانين الفيزياء العادية..

يومها، استخدمت قوانين رياضية، ونجحت فى حل المسألة.. وكنت واحدًا من عدد نادر، لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة، الذين أمكنهم حل المسألة..

وانعكس هذا على مجموع مرتفع، جعلنى أحظى بالمركز الثالث، على مستوى المدرسة..

ومن الواضح أن هذا قد غيَّر شخصيتى تمامًا، ومنحنى قدرًا مدهشًا من الثقة بالنفس، خاصة وقد اقترن بمهارتى فى لعبة الشطرنج، إلى الحد الذى جعلنى أهزم خالى فيها، وهو الذى اشتهر بعبقريته فى إدارتها..

وهنا يتضح أن الثقة بالنفس قادرة على صنع المعجزات..

لقد تبدّلت شخصيتى تمامًا بعدها، وبدأت دراستى فى الصف الثالث الثانوى بروح مختلفة، وبثقة جعلتنى أقف أمام عمالقة المدرسة، فى انتخابات اتحاد الطلاب..

وفزت فى الانتخابات، وتحقّق ما كنت أتصوّره مستحيلاً، وأصبحت أمينًا للفصل، وعضوًا فى جماعة الصحافة، والتصوير، والتمثيل..

انكسرت كل الحواجز دفعة واحدة، وأصبحت فجأة شخصية معروفة ومحترمة، فى المدرسة كلها..

وعندما التحقت بكلية الطب، كانت معى الروح نفسها، مع مزيد من الثقة بالنفس..

وهنا، كانت الثقة بالنفس كارثة..

وكانت بداية..

بداية غير متوقَّعة..

على الإطلاق.

٢

وكانت البداية

٢) وكانـــت البدايـــة..

منذ حداثتى، كنت دومًا شخصية عنيدة متمردة، أرفض الانصياع لأى أمر، يتنافى مع منطقى، وأصر على ألا أسير فى القطيع، أو أكون مجرد ظل للآخرين، مهما كان طريقهم.. ولقد بدا هذا واضحًا، فى امتحان الشهادة الإعدادية..

ففى أوائل صفى الثالث الإعدادى، توفى الزعيم (جمال عبد الناصر)، وكان من الطبيعى أن يتوقَّع الكل موضوعًا إنشائيًا عنه، فى امتحان الإعدادية، وفى الوقت الذى راح الكل يحفظ فيه موضوعًا بعينه، عن ظهر قلب، انشغلت أنا بجمع مجموعات الطوابع المصرية والعربية، التى تخلد ذكراه، وتحمل صورته..

وجاء الامتحان..

وجاء موضوع الإنشاء والتعبير، كما توقَّعه الجميع.. ولكن الممتحن أراد أن يجعل الموضوع أنيقًا، فلم يذكر اسم الرئيس (جمال) صراحة، وإنما طلب منا أن نكتب موضوعًا،

لا يقل عن عشرة أسطر، عن زعيم عظيم، عاش من أجل مبادئه، وترك أثره العميق فى أمة بأكملها من بعده..

ودون تردُّد، كتب جميع طلاب الشهادة الإعدادية ذلك الموضوع، الذى حفظوه عن ظهر قلب، عن (جمال عبد الناصر)..

فيما عداى أنا..

وحدى كتبت موضوع التعبير عن الرسول، صلى الله عليه وسلَّم؛ لأننى وجدت أن نصّ السؤال ينطبق أكثر ما ينطبق عليه..

وعندما خرجنا من اللجنة، وعرف أستاذ اللغة العربية الأمر، امتقع وجهه، وأكَّد لى أن هذا سيؤذينى كثيرًا..

ولكنه كان مخطئًا..

لقد حصلت على درجة ممتازة فى اللغة العربية..

وفى الشهادة الإعدادية كلها..

ولكننى ظللت كما أنا، منفردًا، منطويًا، هادئًا، عزوفًا عن الارتباطات، أو الصلات الاجتماعية المعتادة..

ثم حدث ذلك الانقلاب المفاجئ، في الصف الثالث الثانوي، وتفجَّرت في أعماقي كل النشاطات دفعة واحدة، وأصابني شغف المواجهة والتحدّي..

والفوز أيضًا..

في تلك الفترة، غرقت حتى النخاع، إلى جوار دروس الثانوية العامة، في قراءة كتب المغامرات، والروايات البوليسية، والمجلات المصوَّرة، التي كان معظمها يأتينا من (لبنان)، قبل أن تصدر (مصر) مجلة (تان تان)، التي شغفت بها شغفًا ما بعده شغف..

انبهرت بقصصها المصوَّرة، ذات السيناريوهات المتقنة، والتفاصيل الدقيقة، والأفكار الجديدة المتطوِّرة..

وتحمست مع أبطالها، وسماتهم، وذكائهم، وتفرّدهم..

وأصبح حلم حياتي (ولا يزال)، أن أصدر مجلة مصوَّرة للشباب، تخدم ذهنهم، وفكرهم وتطوّرهم، وتقدّم لهم المثل العليا المنشودة، في صورة زاهية جذّابة..

ومنذ ذلك الحين، رحت أرصد سمات أبطال تلك القصص المصوَّرة، وأتابع، في الوقت ذاته، المجلة العربية المصوَّرة

الوحيدة - في ذلك الحين - والتي تصدر في (مصر)؛ لتحديد الرسامين والفنانين، الذين يصلحون لإصدار مجلة مصوَّرة عربية، تحقِّق ما أتمناه..

وكم أدهشني غياب البطولة العربية تمامًا من هذا العالم الغني المدهش..

كل الشخصيات، التي أشعر بالتفاعل معها، أجنبية المنشأ، غربية التقاليد، بعيدة الانتماء، والشخصيات المصرية، أو العربية، ضعيفة، باهتة، تبدو وكأنها آتية من عصر مضى، لا تثير في نفسي حماسة أو نخوة..

وطرح السؤال نفسه.. لماذا لا تكون لدينا شخصية مصرية عربية، تحمل نفس الإبهار والإثارة، مع تقاليد وسمات وانتماءات أصيلة؟!..

باختصار، لماذا لا نجمع الإثارة والمتعة، مع فروسية مصرية عربية، وانتماء يسري في عروق شبابنا وشاباتنا؟!..

وقد يندهش البعض، عندما أقول هنا، أنني، وفي المرحلة الثانوية، وضعت السمات الأولى للشخصية التي أحلم بها، ورسمتها مع بضع كلمات تصفها، في كشكول ورقي بسيط، ما زلت أحتفظ به، حتى يومنا هذا..

ولكن الدهشة الأكبر، فى أنه لم يخطر ببالى قـط، ولـو لحظة واحدة، فى ذلك الحين، أنه مـن الممكـن أن تتحـوَّل الأحلام إلى حقائق، وأن يولد ذلك البطل بالفعل، بمداد قلمـى البسيط المتواضع!!..

ولكن عدة كشاكيل أخرى، تشهد محاولاتى فى هذا الشأن، وكلها تحوى قصصًا مصوَّرة، كنت أقوم بكتابتها ورسـمها، مستخدمًا ريشة قديمة، وحبر شينى، وما زلت أحـتفظ بتلـك الريشة، تذكارًا لتلك الفترة الجميلة من العمر..

وبالكشاكيل بالطبع..

وقليل هم من رأوا تلك الأعمال، أو قرأوهـا، ربمـا لأن معظم من أعرفهم كانوا يسخرون من الفكرة، ويـرون فيمـا أقوم به مضيعة للوقت والجهد، وأنه من الأفـضل أن أهـتم بأمر أكثر نفعًا..

وهكذا، أصبحت أواصل قصصى المـصوَّرة، وقـصص الخيال العلمى والمغامرات التى أكتبها، دون أن أطلع عليهـا سوى اثنين أو ثلاثة فحسب، من أقرب الأصدقاء، فى نفـس الوقت الذى رحت فيه أكثف نشاطاتى المدرسية، من جماعة الصحافة، إلى جماعة التـصوير الفوتـوغرافى، والتمثيـل،

واتحاد الطلاب، وجماعة العلوم، واشـتهرت بـين أقرانـى برسومى الكاريكاتورية، التـى تـضحك العديـدين، وتثيـر اهتمامهم، بعيدًا عن عالمى الفعلى، والسرى..

عالم التأليف والكتابة..

وفى مرحلة الثانوية العامة أيضًا، مررت بأهم تجربة فى عمرى كلـه..

اندلعت حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣م، وعشت فرحة الشعب ونشوته وانتصاراته، ورأيت الجنـود الإسـرائيليين الأسرى، على شاشة التليفزيون، الأبيض والأسود، ووقفـت فى طوابير التبرع بالدم، بل وتنافست مع زمـلاء دراسـتى وأصدقائى، فى عدد مرات التبرع بالدم، حتى كـاد بعـضنا يصاب بحالة أنيميا حادة، من كثرة عدد المرات..

أيامها، كانوا يمنحون المتبرع علبة مربى، لاستعاضة ما فقده، وكنا - كمجموعة - نرى أن العار، كل العار، فـى أن نقبل علبة المربى، لذا فقد كنا نتنازل عنها؛ لتوفر على الدولة علبة من إنتاجها، لمتبرع آخر يحتاج إليها..

روح تعاون مدهشة، ومعادن أصيلة، لم أشهد مثلها، فـى حياتى كلها، وتركت أثرًا فى نفسى لم يمح حتى هذه اللحظة..

وبعد الحرب، تغيَّر المجتمع تمامًا..

كان الكل يحيا نشوة خاصة، خلبت ألبابنا جميعًا، وسيطرت على نفوسنا، وفجَّرت فى أعماقنا ينابيع عطاء، ربما جف معظمها هذه الأيام..

ووسط كل هذا، أقامت مديريات التربية والتعليم بالمحافظات مسابقة، لأفضل مجلة حائط، عن حرب أكتوبر..

واشتركت فى المسابقة، مع زميلى (أسامة أبو طالب)..

كان هو يتولَّى كتابة المجلة، لما يتميَّز به من خطوط جميلة ومبتكرة، فى حين أقوم أنا بعمل التصميم الإجمالى والرسوم..

وأصدرنا بالفعل مجلة أنيقة للغاية، أشبه بلوحة بانورامية لحرب أكتوبر، وفزنا بالمركز الأوَّل على مستوى المدرسة..

وعلى مستوى المديرية كلها..

وكانت أوَّل مرة أتلقى فيها جائزة، وشهادة تقدير مذهَّبة، احتفظت بها (كالعادة)، مع صورة للمجلة..

وانتشيت بذلك الفوز، كما لم أنتش من قبل، على الرغم من اقتصار ما حصلت عليه على شهادة التقدير، ربما لأنه

أوَّل دليل على مهارتى فى التصميم والرسم، وأوَّل نجاح على مستوى عام..

قبل هذا بعام تقريبًا، كنت قد فزت بالمركز الثانى، فى مسابقة للقصة، أقامها قصر ثقافة طنطا، الذى كنت زبونًا دائمًا فيه، ولكن الأمر ظل طى الكتمان، مع هواية الكتابة، على الرغم من أن فوزى كان على قصة من قصص الخيال العلمى، التى أعدت تنقيحها ونشرها فيما بعد، تحت اسم النبوءة..

ولكن جائزة حرب أكتوبر كان لها طعم مختلف..

طعم النصر، والعلانية، والنشوة..

ثم أنها كانت بداية مرحلة تحول هامة جدًا فى حياتى..

فبعدها، لم أعد أخفى قصصى، بل أعلنها - على استحياء - لعدد أكبر من زملائى، الذين ظل بعضهم يسخر منها، فى حين أولاها البعض الآخر اهتمامًا واضحًا، شجعنى على كتابة المزيد والمزيد..

ومع التحاقى بكلية الطب، عادت الكتابة تنزوى فى ركن قصي، لتبرز هواية وموهبة الرسم، على نحو أكثر وضوحًا..

مع الزميل (سمير حنتيرة)، أصدرت مجلة حائط دورية، باسم (وجهات نظر)، كنا نكتب فيها مقالات ساخنة، وأرسم فى ركنها كاريكاتيرًا كبيرًا، يضمّ كل ما يحدث فى الكلية..

مرة عن المدرجات، وأخرى عن الكافيتريا، وثالثة عـن مشاكل مشرحة كلية الطب.. ولاقت المجلة إقبالاً لم يتوقعـه كلانا، وتضاعفت شهرتى، فى جامعة طنطا كلهـا، كرسـام كاريكاتير، ومصمم ديكور للحفلات، وخاصة بعد أن رشحت نفسى لانتخابات اتحاد الطلاب، وأصبحت عضوًا نشطًا، فى اللجنة الفنية، مع زميل العمر، الدكتور (عاصم غلاب)..

وأعترف هنا، أن النشاط الجم، فى السنة الإعداديـة مـن كلية الطب، قد أبعدنى كثيرًا عن الاستذكار، وشـغلنى عـن تحصيل دروسى على نحـو جيِّـد، حتـى أننـى فوجئـت بالامتحانات على الأبواب، ولم أكن قد استذكرت شيئًا يذكر، وكتب الدراسة كما هى، لم تمس أو تفتح صفحاتها..

وكان من الضرورى أن أقيم معسكر عمل عنيـف، فـى الأسابيع التى تبقت على انتهاء الدراسة..

وكانت فترة عسيرة للغاية، بذلت فيها جهدًا خرافيًا، ولكنها لم تكف - فعليًا - لتحصيل الدروس على وجه مناسب..

ودخلت الامتحان، وأنا أقدّم قدمًا، وأؤخر أخرى..

وكانت كارثة..

الأسئلة معظمها مبهم، غامض، بالنسبة لطالـب مهمـل مثلى، يستوعب بالكاد عشرة فى المائة مـن المقـررّ علـى الأكثـر.. وأقسمت يومها، أننى لن أضع نفسى فى مثل هذا الموقف مرة ثانية قط، مهما كانت المغريات..

وأنهيت الامتحانات، وأنا أتوقّـع الرسـوب فـى معظـم المواد.. ولكن الله (سبحانه وتعالى)، شاء أن يعفينى مـن أن يحمل تاريخي محطة رسوب واحدة..

ونجحـت..

نجحت بتقدير مقبول، فى كل المواد، وصـليت لله (عـزّ وجلّ) ركعتى شكر، وتعهدت أمامه بألا أكرّر هـذا الخطـأ قـط..

وقد كـان..

لم أرسب بعدها، أو أفشل، أو أواجه موقفًا ممـاثلاً، فـى حياتى قط..

لقد أصبحت أبذل قصارى جهدى، فى كل ما يـواجهنى، وأذكر نفسى دومًا بنتائج التقاعس، وأستعيد تـوترات الـسنة الإعدادية، كلما واجهنى موقف ما، مما يدفعنى إلى بذل جهد خرافى، فى سبيل النجاح..

وأصبحت هذه سمة من سمات حياتى..

هذا لأن السنة الإعدادية، من كلية الطب، كان لها تـأثير قوى للغاية، فى مسار حياتى كلها..

ربما لأننى، فى تلك السنة، أو فى نهايتها بالتحديد، التقيت معـه..

مع (رجل المستحيل)...



٣) الرجـــــــــل..

كنا فى نهايات السنة الإعدادية، من كلية الطـب، عنـدما ذهبت لأوّل مرة، لزيارة (أليكس) و(ويليام)..

سائحان إنجليزيان، استقرا فى مدينتى طنطا، واستأجرا شقة مجاورة لزميل لنا، وأقاما علاقات جيدة، ولطيفـة، مـع عدد من شبان مدينتى..

كانا يرويان للكل أنهما جاءا خلف شاب مصرى، تعرّضا على يديه لحالة نصب، ويدين لهما بمبلغ مالى كبيـر، ولقـد دعاهما لزيارته فى (مصر)، وفى (طنطا) بالتحديد، ثم تخلّى عنهما، وفرّ منهما..

كانت قصتهما تثير التعاطف حولهما، وتمثّل فى الوقـت ذاته غطاءً ممتازًا لإقامتهما فى (طنطا)، التى لا تحوى أيـة معالم سياحية، أو أماكن يمكن أن يسعى خلفها أى أجنبى..

وفى حماس وطيبة - ظاهرين - راح (أليكس) يمـارس مهنته - كما ادعى - لتدريس اللغة الإنجليزية للشباب، وجمع

حوله عددًا منهم، وعلى رأسهم زميل لى، قصّ علىّ قصتهما فى تأثّر، وعرض علىّ أن ألتقى بالسائحين، فـذهبت معـه بالفعل لزيارتهما..

ولقد استقبلانى فى مودة شديدة، وتبادلنا بعـض الحـديث بالإنجليزية، وقام (أليكس) خـلال هـذا بتـصحيح كلمـاتى وعباراتى، وشرح لى أسس اللغة، فى سلاسة مدهشة، ممـا دفعنى للالتصاق بهما لفترة من الوقت، تطوّرت خلالها لغتى الإنجليزية، على نحو واضح..

وعندما كنت أتناقش معهما ذات يوم، تطرّق الحديث إلـى أمور سياسية، ففوجئت بهما يستوقفاننى فى حزم، ويؤكـدان لى أنهما يرفضان تمامًا الحديث حول السياسة أو الدين..

أيامها كان يزورهما شخص بسيط المظهر، ركيك اللغـة، عرّف نفسه باسم (رفعت)، كانـا يـستقبلانه فـى تحفّـظ، ويتعاملان معه فى حذر واضح، مما أثار تـساؤلى، حـول هويته الحقيقية..

وفى بساطة، سألت صاحب كشك عند مدخل منزلهما، عن هوية (رفعت) هذا، ففاجأنى بأنه مخبر، من جهاز أمن الدولة، الذى كان يعرف فى ذلك الحين باسم (المباحث العامة)..

ولسبب ما، أخفيت المعلومة داخلى، ولم أصارح بها (أليكس) أو (ويليام) قط، ربما بسبب حاسة أمنية خاصة، مزروعة فى أعماقى، منذ نعومة أظافرى، ولكننى واصلت زيارتهما، والإفادة من دروس اللغة الإنجليزية..

كان معظم الشباب الذين يزورونهم قد ملّوا الدراسة، وملّوا أكثر الأحاديث الثقافية، وتوقفوا عن المجئ، فى حين واظبت أنا على هذا، مما جعل (أليكس) يولينى عناية خاصة، ويقضى وقتًا طويلاً معى، فى أحاديث عامة، ظاهرها تحسين مفرداتى ولغتى الإنجليزية، فى حين رددت أنا الجميل، بتعليمهما بعض مفردات اللغة العربية..

وبدأ الحديث يتطرّق إلى (مصر)، ونظمها، وردود أفعال الناس فيها، وغيرها من المعلومات، التى أضاءت فى أعماقى مصباح إنذار أحمر، ونبهتنى إلى أنه وراء الأكمة ما وراءها..

فى ذلك الحين، كان لى خال - رحمه الله - اعتاد السفر خارج البلاد، والتعامل مع الأجانب، ويجيد اللغات إجادة ممتازة، كما يجيد التعامل مع النظم والقوانين.. ولقد شعر خالى هذا ببعض الشك فى أمر (أليكس) و(ويليام)، الذى كنا

نناديه (بيل)، ونصحنى بالحذر فى التعامل معهما، حتى لا يورطاننى فيما لا تحمد عقباه.. وتصوّرت أيامها، كما يفعل معظم الشبان، أن خالى هذا مصاب بالوسواس القهرى، وأنه يبالغ فى الشك والحذر، و...

وفجأة، أدركت أنه ليس وحده، فى شعوره هذا..

السلطات الأمنية أيضًا، تشاركه شكوكه وحذره..

أدركت هذا، عندما استوقفنى ذات يوم (رفعت)، ذلك المخبر من (المباحث العامة)، وأخبرنى أن (ع.س) يطلب رؤيتى هناك..

وفورًا..

وقبل أن أستوعب الموقف، وجدت نفسى هناك، فى ذلك المبنى المنعزل، عند أطراف (طنطا)، والذى كان الكل يتحاشى مجرد المرور إلى جواره..

مبنى (المباحث العامة)..

وهناك، قابلت (ع.س)، الذى ما زالت تربطنى به صداقة قوية، إلى يومنا هذا.. استقبلنى بابتسامة هادئة، ومودة واضحة، وتحدّث معى طويلاً، حول حياتى الشخصية،

وأسرتى، وأصدقائى، وأدركت من حديثه أنه يعرف عنى الكثير.. والكثير جدًا..

ثم فجأة، انتقل الحديث إلى (أليكس) و(بيل)..

وأصابنى الذهول مما سمعت..

وتلقيت درسى الأوّل عن الجاسوسية، وأسلوب الجواسيس المبتكر، والمتطوّر دومًا، فى جمع المعلومات..

تعلّمت أن أهم ما يميّز الجاسوس، هو أن يكون لطيفًا، ودودًا، لديه دومًا ما يقدّمه للآخرين، وما يمكنه من جذب العناصر المطلوبة إليه..

وعرفت أن أكثر ما يحرص عليه أى جاسوس، هو ألا يتورّط فى أية أحاديث، حول السياسة أو الدين؛ باعتبارهما من نقاط الخلاف الرئيسية، التى قد تنمي العداوات، أو تحيطه بالشكوك..

تعلّمت الكثير والكثير فى جلسة واحدة..

وانبهرت..

وفزعت..

وفى النهاية، طلب منى (ع.س) ألا أتوقّف عن زيارة (أليكس) و(بيل)، وألا أبدى لهما أية شكوك..

ونفذت تعليماته حرفيًا..

ثم انتقل الأمر كله إلى مرحلة ثانية..

ومختلفة..

ففى مرة تالية، وفى مكتب (ع.س) أيضًا، التقيت برجل هادئ، صامت، وسيم، يستمع كثيرًا، ويتحدّث قليلاً..

قليلاً جدًا..

ذلك الرجل جذب انتباهى منذ اللحظة الأولى، وأثار فى نفسى عشرات التساؤلات وطن من الحيرة، خاصة وأنه استمع إلى قصتى كلها مرة..

وثانية..

وثالثة..

وبعد أن دوّنت كل ما لدى، كما طلب منى، أخذ الأوراق، ووضعها فى جيبه، وقدّم لى نفسه باسم (ش.و)، وغادر فى هدوء..

فى تلك الفترة، كان طلب مد الإقامة، الذى تقدَّم به (أليكس) و(بيل) قد قوبل بالرفض، من السلطات الأمنية، وتحتم عليهما مغادرة البلاد، وتصوَّرت أن هذا يعنى نهاية مهمتى..

ولكنه كان البداية..

لقد فاجأنى (أليكس) بدعوة رسمية، تحمل ختم القنصلية البريطانية؛ لزيارته فى (لندن)..

وطلب منى (ش.و) قبول الدعوة، واتخاذ كل الإجراءات الرسمية للسفر.. وتطوَّرت الأمور بعدها، وتعقَّدت، وأصبحت أشبه بالروايات، التى أقوم بكتابتها حاليًا... والمؤسف هو أننى مضطر هنا لإيقاف القصة؛ لأن ما حدث بعدها غير متاح للنشر، حتى لحظة كتابة هذه السطور، ولكن كل ما يمكننى قوله، هو أننى عرفت فيما بعد، أن (ش.و) هو رجل أمن رفيع المستوى، وأن اسمه الحقيقى لا يمت للاسم الذى قدم لى نفسه به فى البداية بصلة..

فكما عرفت فيما بعد، كان يدعى (أ.ص)..

ولقد انبهرت به انبهارًا شديدًا، فى ذلك الحين، ورأيت فيه صورة نموذجية لرجل الأمن، الذى يعمل فى صمت، وعبر

مجموعة من الخبرات والمهارات، لم أتصوَّر أن يمتلكها شخص واحد..

كان شديد الهدوء، حتى فى أحلك المواقف، يجيد قيادة السيارات، فى مهارة مدهشة، ويتحدَّث عددًا من اللغات، حتى تكاد تحار فى هويته الحقيقية..

كما أنه كان شديد البراعة، فى تقمص الشخصيات المختلفة..

وانبهرت كما لم أنبهر من قبل..

وبدا لى ذلك الرجل، كصورة نموذجية للبطل، الذى أحلم به منذ طفولتى، والذى لم أتصوَّر أن يكون حقيقة..

وفى أعماقى، أطلقت عليه اسمًا، بدا مناسبًا تمامًا فى حينه..

اسم..

(رجل المستحيل)..

وهكذا وُلِد الاسم فى داخلى، وإن ظلَّ منفصلاً عن الشخصية، التى رسمتها، وكتبت سماتها وصفاتها فى كشكولى الصغير..

وفى منتصف سنتى الأولى بكلية طـب طنطـا، انتهـت مهمتى المحدودة، وتوقفت معها علاقتى بالرجل، ولـم أعـد أرى (أ.ص)، أو حتى (ع.س)..

ولأن الدراسة مكثفة وشاقة، وخصوصًا فى سنوات الطب الأولى، فقد انشغلت بها تمامًـا، وغرقـت فـى تفاصـيلها ودهاليزها، وفى انتخابات اتحاد الطلاب، حتى نسيت كل مـا يتعلّق بالجاسوسية، وبدورى المحدود فيها، والذى لم أخبر به عائلتى نفسها..

ومرّت الأيام، وتطوّرت الحياة الجامعية، وقرّر السادات، الذى يعانى من ضغوط الفئات الشيوعية، أن يطلـق عليهـا التيار الإسلامى، كوسيلة لردعها..

وهكذا، وبعد سنوات من القهر والكبت والتنكيل، انطلـق التيار الإسلامى من عقاله...

وبكل قوته...

وهنا... حدث تحوّل عجيـب وسـريع، فـى النـشـاط الطلابي كلـه..

وفى (مصر) كلها...

كانت الحياة تسير على نحو أكثر بساطة، ثم فوجئنـا ذات يوم بعدد من زملائنا وقد أطلقوا لحاهم، وعقدوا حـواجبهم، وانفصلوا عنا، وصاروا يتعاملون مع الآخرين كما لو أنهـم مصابون بالجرب أو الجذام..

وفى بساطة، التقيت ذات صباح بأحدهم، فمددت يدى إليه لأصافحه، وأنا ألقى إليه تحية مرحة، ففوجئت به يسحب يده بحركة حادة، ويطالبنى بتحيته تحية الإسلام!!..

ولم أفهم هذا أبدًا، فالدين يأمرنا إذا حيانا أحدهم بتحية، أن نحييه بأحسن منها أو نردها، فلو أن هناك تحيـة واحـدة لا غير، فكيف نرد بأحسن منها؟!..

وما هو الأحسن منها؟!..

عندئذ، شعرت أننا نبدأ مرحلة شديدة الخطورة، سـتكون لها تداعيات شديدة العنف والشراسة، فى الأيام التالية..

وبسبب تجربتى السابقة، تـصورّت أن (ع.س) سـيبادر بالاتصال بى؛ لمعرفة تفاصيل عما يحدث داخـل الجامعـة، وأصابنى هذا بتوتر شديد، فعلى الرغم من تعـاونى التـام، وطاعتى العمياء له، فيما يتعلّق بقضية السائحين الإنجليزيين، لم أكن مستعدًا لأدنى تعاون، فى تلك الشئون الداخلية..

ففرق كبير جدًا، بين حماية (مصر) من غرباء، ومعاونتها على إيذاء أصدقاء، مهما اختلفت معهم فى الرأى والفكر..

وقرَّرت أيامها أننى لن أتعاون مع (ع.س)، مهمـا كـان الثمن، وتمنيت ألا يحاول الاتصال بى، فى تلك الظروف..

ويبدو أننى كنت واهمًا أو مبالغًا؛ لأنه لم يحـاول حتـى الاتصال بى، ولو مرة واحدة.. (أ.ص) هو الذى واظب على الاتصال، فى أيام الامتحانات؛ للسؤال عن أحوالى ونتائجى، قبل أن ينتدب للعمل فى دولة عربية قريبة، فتتوقف اتصالاتنا لفترة طويلة نسبيًا..

أيامها كنت قد أصبحت أمينًا للجنة الفنية، والوحيـد مـن خارج الجماعات الإسلامية، فى مجلس اتحاد الطـلاب، وإن ربطت بينى وبين أفراد الجماعـة علاقـة ود واحتـرام، لا يفصمها كونى لست أحد أفرادها..

وحتى نهاية فترة الدراسة الجامعية، ظلت الأمور هادئـة، إلى حد ما، لا تشوبها إلا بعض المناوشات، بينى وبين أفراد الجماعة، الذين يستنكرون فكرة إقامة الحفلات، أو العروض المسرحية، أو معـارض الرسـم والتـصوير، ويـرون أن الموسيقى والفن، وكل ما يتعلَّق بهما حرام فى حـرام، ممـا

أوقف نشاط اللجنة الفنية تمامًا، وأصابنى بملل شديد، فلم يعد أمامى، وخاصة بعد إيقافهم مجلات الحائط، لما تحويه مـن رسوم، سوى الانغماس فى كتابة قصص المغامرات والخيال العلمى، وحشدها فى مجموعة كشاكيل جديدة، لم يعد يطالعها سوى صديقى الوحيد، فى ذلك الحين، (محمـد حجـازي)، وصديق يكبرنا سنًا، ونَدين له بالكثير من الحب والاحتـرام والتقدير، وهو الـدكتور (أحمـد صـبري)، جـرّاح المـخ والأعصاب العالمى حاليًا..

وفى السنة النهائية، التقيت لأوَّل مرة بزوجتـى الحاليـة (ميرفـت)..

كانت صديقة لشقيقتى الصغرى، التحقت مـؤخرًا بكليـة الطب، وطلبت منى شقيقتى - لغرض فى نفس يعقوب - أن أسألها عما تحتاج إليه، فى ذلك العالم الجديد..

والتقيت بصديقة شقيقتى، وعرضت عليهـا تقـديم كـل المساعدات الممكنة..

وقبل أن يمضى شهر واحد، كنت غارقًا فى الاهتمام بها، والشغف بلقائها، وأصبحت أبحث عنها فـى الكليـة طـوال الوقت، كلما ذهبت إلى هناك..

كانت قد تبقت أشهر قليلة على التخرُّج، وكنا أيامها نتسلَّم عملنا، كأطباء امتياز، قبل شهر واحد من نتيجة البكالوريوس..

لذا، كان من المحتم حسم الأمر، قبل الانغماس فى فترة الاستذكار للامتحان..

ولست أدرى ما يحدث هذه الأيام، ولا كيف يفكِّر شباب الجيل الحالى، ولكن أيامها، كانت المصارحة عملية شاقة وعسيرة، وتستلزم شجاعة كبيرة..

ولكننى فعلتها..

أخبرتها أننى مهتم بأمرها، وأننى أرغب فى الارتباط بها، وكما كانت تفعل الفتيات - أيامها - طلبت منى مهلة للتفكير..

ومضت المهلة..

ووافقت..

وطرت أنا فرحًا وسعادة، وانهمكت فى الاستذكار بمنتهى الحماس، حتى أصبح طبيبًا، ويمكننى التقدُّم لخطبتها..

وهنا لابد وأن أذكر واقعة، ما زالت تدهش كلينا، حتى لحظة كتابة هذه السطور..

كنا نجلس فى حديقة الكلية، ونتحدَّث فى أمور شتى، عندما توقفت عن الحديث بغتة، وسألتها دون أى مبرِّر، أو سبب منطقى حينذاك، عما إذا كانت سترتبط بى لشخصى المجرَّد، أم لأننى سأصبح طبيبًا؟!..

وفى حيرة مندهشة، سألتنى (ميرفت) عما يعنيه هذا، ففوجئت بنفسى أخبرها أننى لن أصبح طبيبًا، وإنما سأصبح كاتبًا..

قلتها فى يقين شديد، وكأننى أطالع اللوح المسطور، أو أقرأ مقدمًا كتاب القدر، فى تلك اللحظة العجيبة..

واندهشت (ميرفت) دهشة شديدة آنذاك، وسألتنى عن سر قولى هذا، فلم أملك لها جوابًا، وأنا أشعر بدهشة تفوق دهشتها..

وتجاوزنا الأمر كله..

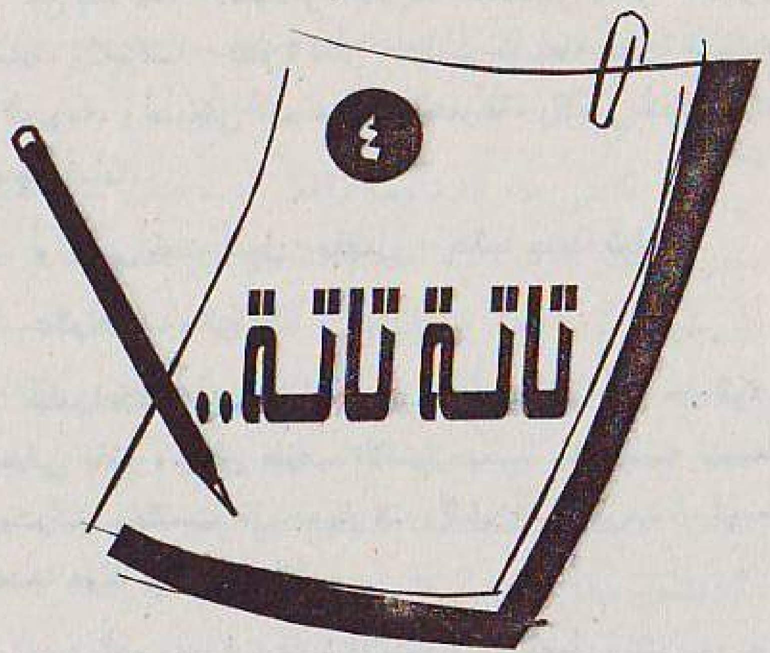
ولكنه لم يتجاوزنا..

فبعدها بعدة أشهر قليلة، بدأت امتحانات البكالوريوس، فى ديسمبر عام ١٩٨٠م، ثم ظهـرت النتيجة فـى أول فبرايـر عام ١٩٨١م..

وفى مارس من العام نفسه، تسلّمت عملى كطبيب امتياز..

وبدأت حياتى العملية..

وبشكل لم أتوقعه قط.



٤) تاتـــــة.. تاتـــــة..

مع بدء سنة الامتياز، تغيَّرت شخصيتى مرة أخرى تمامًا، وتحوَّلت - بقدرة قادر - إلى شعلة من النشاط والحيوية، وأصابنى نهم مدهش للمعرفة، وكأننى أدخل عالمًا جديدًا تمامًا..

أو لأننى كنت أدخل- بالفعل - عالمًا جديدًا تمامًا...

عالم الطب والدواء..

أيامها كانت أعداد الأطباء فى المستشفيات، أقل من الوقت الحالى بكثير، وكان طبيب الامتياز يجد الفرصة ليتعلَّم ويتدرَّب، ويكتسب كل المهارات والخبرات اللازمة، ليبدأ بعدها حياته كطبيب حقيقى..

ومن أهم مميزات فترة الامتياز، أننا نعمل ونتدرَّب، دون أن نتحمل أية مسئوليات جنائية أو قانونية، مما يزيل تمامًا أى شعور بالقلق والتوتر والخوف، ومما جعل الأطباء والنواب يصفوننا، بأننا مجرّد ظل أبيض (بسبب البالطو)، يسير فى المستشفى، دون نفع أو فائدة، وغالبًا مسببًا الضرر!!..

ولأننى كنت أقيم فى منزل جدى، المواجه للمستشفى تمامًا، فقد اعتبرنى باقى الأطباء، حتى النوّاب المقيمون منهم، المسئول الأوّل عن كل ما يجرى فى المستشفى، من حالات عاجلة، وكانت حجتهم فى هذا أننى أقيم فى منزلى، وأستطيع بلوغ المستشفى، قبل أن يبلغه أى شخص منهم، حتى من يقيمون فى سكن الأطباء، فى المبنى الجديد..

ولقد أفادنى هذا إفادة جمة بالفعل، وساعدنى على اكتساب خبرات أكثر، ومعارف أهم، ولكنه، وعلى عكس ما توقعوه، أورثنى شعورًا مصريًا بالتكاسل، إذ كان من السهل جدًا أن أستيقظ فى الصباح المبكِّر، وأهبط إلى المستشفى، لأوَقع فى دفتر الحضور، فى بعض الأيام، ثم أعود للنوم، حتى تحين لحظة الانصراف، فأذهب للتوقيع فى دفتر الانصراف، دون أن يشعر بهذا أحد، مع كثرة عدد أطباء الامتياز..

ولكننى نادرًا ما كنت أفعل هذا..

ومع نشاطى الجم، أصبح معظم الأطباء يسندون إلىّ مهامهم الليلية، وأحيانًا العيادات الطبية النهارية، وبنيتى تخفى حقيقة سنى، وتمنحنى مظهر الأطباء الوقور...

وذات يوم، فاجأنى أحد الأطباء، بأن طلب منى اصطحابه لتوقيع الكشف الطبى، فى آخر مكان يمكننى توقعه، أو حتى تخيله..

فى السجن..

سجن طنطا العمومي..

وكانت مفاجأة عجيبة بالنسبة لى، وتجربة لم أستطع مقاومة خوضها، فاصطحبته بالفعل إلى السجن..

ولعدة مرات، وقعنا الكشف الطبى على المساجين هناك، واصطحبنا ثلاثة أو أربعة منهم، تحت حراسة مشدَّدة، إلى المستشفى؛ لأن حالتهم كانت تستدعى هذا..

ولقد أدهشنى ما رأيته هناك للغاية..

فعلى عكس توقعاتى، كان المساجين يعيشون حياة كاملة داخل السجن، وكل منهم يمارس مهمته الأصلية، أو مهنة اكتسبها هناك.. بل ويسترزق منها أيضًا..

وضباط السجن يتعاملون مع معظم المساجين فى بساطة مدهشة، كما لو كانوا فى مصنع أو متجر كبير، ويستفيدون منهم أيضًا..

سيارات الضابط يصلحها ميكانيكيون سجناء، ومنازلهم يطليها نقاشون من السجن، وحتى قمصانهم وسراويلهم، يقوم بتفصيلها مساجين ترزية..

والتعامل داخل السجن يتم بوساطة السجائر، بدلاً من النقود، وكل شئ فيه يحدَّد ثمنه بعددها.. فهذا يساوى سيجارتين، وذاك عشرة، والعمل الأصعب بعلبة كاملة.. وهكذا، وكل هذا بتسعيرة ثابتة، ولا يمكن العبث بها، على عكس الخارج..

حتى المخدرات، تباع فى السجن، وبأسعار تقل كثيرًا عن مثيلاتها خارجه..

عالم عجيب للغاية، أدهشنى وأثار فضولى، وفجَّر الكثير من طبيعتى الفاحصة التحليلية..

ولقد استنكرت فى البداية نظرة الضباط للمساجين المرضى، وإحساسهم بأنهم جميعًا يتمارضون، حتى يثبت العكس..

ثم أدركت أنهم على حق..

عشرات المساجين كنا نوقِّع الكشف الطبى عليهم، بناءً على شكواهم، ثم نكتشف أنهم أصح منا..

ربما هو مرض نفسى، أو محاولة للخروج بضع لحظات من قيود السجن.. الله أعلم..

ومن وجهة نظر الضباط، فالمسجون يحاول الخروج من خلف أسوار السجن لبضع ساعات، حتى ولو تم هذا تحت حراسة مشدَّدة، وحتى لو اضطره الأمر لإجراء جراحة بسيطة..

ولهذا كانوا يتعنتون بشدة، إذا ما استدعى الأمر نقل مسجون ما إلى المستشفى؛ لإجراء بعض الفحوص، التى لا يمكن أن تتوافر فى السجن.. حتى عندما كان هناك سجين، قضى خمسة عشر عامًا تقريبًا فى السجن، وتبقى له شهر واحد، قبل أن يخرج للحرية، وأصابه مغص كلوى حاد، وأردنا أن نجرى له فحصًا بالأشعة السينية، فرفض مأمور السجن إخراجه إلى المستشفى، وأكَّد أنه حتى لو تبقى له يوم واحد، فقد يصاب بالهستيريا، عندما يخرج إلى النور، فيعمد إلى الفرار، ويسبب لنفسه ولهم مشاكل جمة بلا جدوى..

وعلى الرغم من رفضى أيامها، وحتى الآن، للفكرة، إلا أنه من بين الحالات الأربع، التى نقلناها إلى المستشفى، واجهت حالتين عجيبتين للغاية، تؤكدان أن الأمن يكون، فى كثير من الأحيان، على حق..

الحالة الأولى لمسجون كان يشكو من آلام مع البول، وعندما حصلنا منه على عينة لتحليلها، وجدناها مليئة بالدم، وكان من المحتم، والحال هكذا، أن يتم نقله إلى المستشفى، لفحص كليتيه، وجهازه البولى كله، بالأشعة السينية، والملوَّنة..

وتحت حراسة مشدَّدة، وإجراءات صعبة، نقلناه إلى المستشفى، وأجرينا الأشعتين، وكانت النتائج كلها جيدة، ولا تشير إلى أى خلل وظيفى، وعلى الرغم من هذا ما زال بوله مليئًا بالدم..

وهنا، قمنا بفحص البول مرة ثانية، وعثرنا فيه على كرات دم حمراء، وليس مادة الهيموجلوبين وحدها، وهنا قرَّر الطبيب الأساسى فحص جسده كله، لنكتشف أنه كان يخفى إبرة، يغرسها كل مرة فى إبهامه، ليقطر قطرات من دمه فى عينة البول..

وأعدناه إلى السجن، مع تقرير رسمى بهذا..

مرة أخرى شكا مسجون من آلام فى صدره ومعدته، وأقرَّ بأنه قد ابتلع موس حلاقة، مما أثار فزعنا، فاصطحبناه إلى المستشفى؛ لإجراء فحص إشعاعى..

وعندما شاهدنا صور الأشعة، أصابتنا دهشة عارمة؛ إذ وجدنا فيها صورة موس حلاقة كامل بالفعل..

ووفقًا للأشعة، وموضع الموس، ينبغي أن يمزقه هذا تمزيقًا، لذا فقد قمنا بفحصه مرة ثانية، ووجدنا صورة الموس أيضًا، ولكن في موضع مختلف، مما يعني أنه يتحرّك في أحشائه، ويشق طريقه فيها مع الوقت.. ولأن الرجل لم يكن يعاني من أية أعراض أخرى، فقد شككت في أمره، وقررت عمل أشعة ثالثة له، وأثناء إجرائها، اقتحمت حجرة الأشعة وفحصته شخصيًا..

وكانت المفاجأة..

كان يلصق موس حلاقة على ظهره من الخلف، فنراه في صور الأشعة، كما لو كان داخل صدره!!..

وهكذا تعلّمت الدرس..

تعلّمت أن هناك من يلجأ إلى الاحتيال، حتى أقصى حد، فقط لينعم بقليل من الحرية..

وأدركت قيمة الحرية..

أدركتها جيدًا..

وقبل أن تنتهي سنة الامتياز، كنت قد اكتسبت بضع مفاهيم ومعارف دنيوية جديدة، إلى جوار الخبرات الطبية، وكنت أستعد للانتقال إلى مرحلة التكليف الإجباري، عندما جمعتني الصدفة به فجأة..

بـ (أ.ص)..

رجل المستحيل..

* ********** *

كان أوان معرض الكتاب الدولي، وكنت مسافرًا بالقطار إلى القاهرة؛ لأعمل في جناح خالي الناشر – رحمه الله – عندما فوجئت بأن مقعدي جاء إلى جوار مقعده، بالمصادفة البحتة..

أو بترتيب من القدر..

كان قادمًا من (الإسكندرية)، لسبب لم يذكره – كالمعتاد –، وجمعنا القدر في مقعدين متجاورين، وهتفت في سعادة لرؤيته، فصافحني في حرارة وهدوء، وسألني عن أحوالي، واتصل بيننا حديث هادئ ممتع، تمنيت معه أن يطول الطريق، فلا نصل إلى (القاهرة) إلا بعد ساعات وساعات..

يومها، استعدت انبهاري السابق بـه، واستعدت كل ذكرياتي معه، وعدت أفكر مرة ثانية في الشخصية، التي تمنيت دومًا ابتكارها في عالمنا العربي.. شخصية رجل الأمن المصري، العربي، الشهم، القوي، المبهر، صاحب المغامرات المثيرة..

الشخصية القادرة على سحب البساط، من تحت أقدام كل الشخصيات البطولية الأجنبية..

أيامها، كانت قصص المغامرين الخمسة شهيرة للغاية، وكنت مبهورًا بما يكتبه أستاذنا (محمود سالم)، ولكنني كنت أفكر في حالة مختلفة..

حالة بطل عربي فردي، ينافس (جيمس بوند)، و(روكامبول)، و(أرسين لوبين)، و(شيرلوك هولمز) معًا..

وفي (القاهرة)، طرحت الفكرة على خالي، ولكنه لم يقتنع بها.. يومها، حدثني عن ضرورة نشر روح الجماعة، وعدم التركيز على الشخصيات الفردية، وصعوبة توزيع وتسويق مثل هذه النوعية من القصص، لو تم نشرها باللغة العربية..

وأصابني إحباط شديد..

ولكنني لم أتوقف عن طرح الفكرة على نفسي..

وفي معرض الكتاب التالي، حصلت على عنوان دار نشر شهيرة، كانت تصدر أيامها مجلة جديدة، وتصوَّرت أنني قد أجد لديها الفرصة، التي أحلم بها..

وقبل أن تنتهي سنة الامتياز بأسبوع واحد، كنت قد كتبت أوَّل قصة، من قصص ذلك البطل الجديد، ومنحته اسمًا بسيطًا، ولم يخطر ببالي أيامها أن أسميه (رجل المستحيل)، وهرعت بها إلى دار النشر الشهيرة على الكورنيش، وطلبت اللقاء بأحد مسئوليها، وطرحت عليه الفكرة، وكلي حماس لتنفيذها..

وكانت الصدمة..

مسئول دار النشر رفض الفكرة في عنف شرس، ليس له مايبرِّره، وأعاد على مسامعي نفس ما ردَّده خالي من قبل، وأكَّد لي أن قصص البطولة الفردية مرفوضة تمامًا، وأنه لابد من تنمية روح الجماعة، أنني لن أجد ناشرًا واحدًا يقبل بتلك الروايات، ولو بعد ألف سنة..

وهنا، سألته في غضب، لماذا إذن تمتلئ أسواقنا بقصص بطولة فردية أجنبية، ونرفض أن نضم إليها بطولة عربية..

وبمنتهى الحدة، أنهى المسئول الحديث، وطلب منى حمل قصتى ومغادرة مكتبه، دون أن يقرأ منها سطرًا واحدًا..

وحملت القصة محبطًا، وذهبت إلى مجلة أطفال شهيرة...

وتكرّر الموقف بحذافيره..

لا أحد يمنح أدنى فرصة لكاتب جديد...

لا أحد يريد أن يمنح أية فرصة، لأى كاتب...

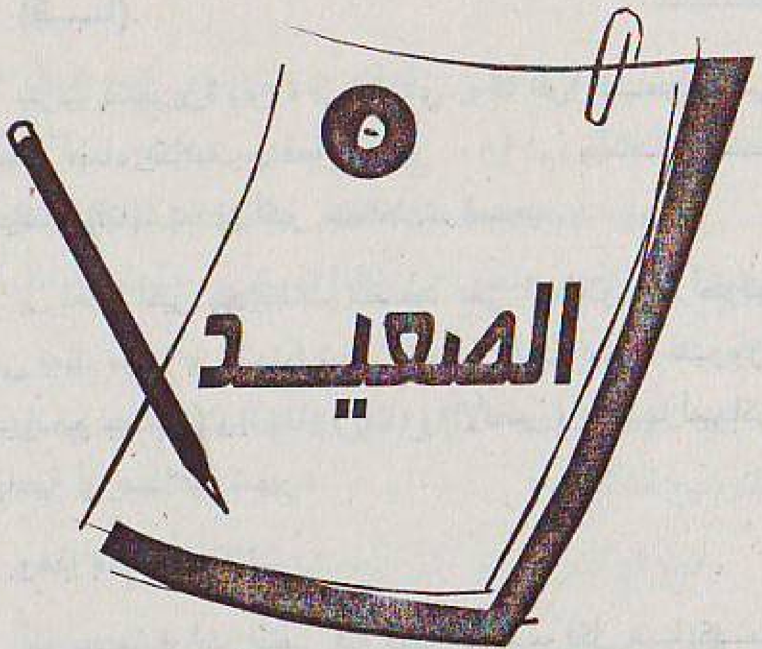
وياله من شعور باليأس والإحباط والفشل!!..

وبكل ما ملأ نفسى من مرارة، قررّت التوقّف عن المحاولة، ونسيان موضوع الكتابة نهائيًا، وحملت قصة بطلى، وعدت بها إلى (طنطا)، وألقيتها فى درج مكتبى، وقرّرت أن أنسى حتى فكرة تحولّى إلى كاتب..

وأن أرضى بمسيرة الطبيب..

ولكن القدر كان يخفى لى طريقًا مختلفًا..

تمامًا...



٥) الصعيد..

(قنا)...

سرت قشعريرة باردة في جسدي، وأنا أقرأ اسمي، في كشف أطباء التكليف، دفعة ديسمبر ١٩٨٠م، وأمامه اسم محافظة (قنا)، إحدى أكبر محافظات الصعيد..

بل لعلها أكبر محافظات الصعيد على الإطلاق، أو أطولها فهي تمتد من (أبو تشت) شمالاً وحتى (أسنا) جنوبًا مرورًا بـ (نجع حمادي) و(دشنا) و(قنا) و(الأقصر)، كلها أماكن سياحية أو صناعية شهيرة..

وهذا ما أعرفه الآن..

أما عندما قرأت اسمي في ذلك الكشف، فكل ما كنت أعلمه هو أن (قنا) هي إحدى محافظات الصعيد..

وفى ذلك الحين، كانت كلمة (الصعيد) هذه تبدو مبهمة مخيفة.. بالنسبة لسكان وجه بحرى فهو أسم يرتبط بالصرامة والعنف والثأر.. والعقاب أيضًا..

بل وربما كان (العقاب) هو المرادف الطبيعي لكلمة (الصعيد)، في تلك الفترة من الزمن، إذ كان أهم ما نعلمه هو أن من يرتكب خطأ لا يغتفر في الحكومة يتم نقله إلى الصعيد..

وكانت العبارة تقال - آنذاك - على نحو أشبه بالنقل إلى الجحيم نفسه..

وبعد هذه الديباجة السابقة أعتقد أنه سيدهشكم بحق أن تعلموا أن تكليفي بالعمل في (قنا) لم يكن نوعًا من العقاب أو حتى من المفاجأة بالنسبة لي..

لقد كانت الرغبة الأولى التي كتبتها على رأس استمارة الترشيح للتكليف..

والسؤال الذي سيقفز إلى أذهانكم حتمًا هو لماذا؟!

لماذا يلقى طبيب شاب نفسه في ذلك الجحيم، دون أن يكون مضطرًا لهذا؟!

والجواب أيها السادة هو دبلة الخطوبة..

نعم.. ففي ذلك الحين كنت قد ارتبطت بخطبة زوجتي الحالية، وهى وحيدة والدها، الذي لم يمكنه أن يهضم أبدًا

خطبتها لطبيب شاب في بداية حياته، استدان ثمن دبلتي الخطوبة ولا يملك سوى راتبه الضخم الذي يقل عن الخمسين جنيها بعدة جنيهات (كثيرة).

ولكن لأنها أبنته الوحيدة وتصر على الارتباط بهذا الطبيب المفلس بشدة وهو لا يرغب في لعب دور (زكي رستم) أو (سراج منير) الذي يقف في وجه ابنته ويحطم قلبها، فقد وجد أن أفضل وأذكى وسيلة هي أن يتخمني بطلبات مرهقة من مهر وشبكة وخلافه.. حتى أضطر إلى الانسحاب في نفس الوقت الذي يرسم هو فوق رأسه تاج القديسين وبراءة الأطفال في عينيه..

ولأنني لم أكن أدرك أيامها أن الرجل طيب وحنون للغاية وأن قليلا من الضغط سيجعله ينهار ويعترف فقد وافقت على كل طلباته (التي ستبدو اليوم مضحكة مقارنة بما يطلبه الأهل الآن من لبن العصفور إلى شعر الهدهد اليتيم إلى سواري (كسرى)) وأنا أعلم أن هذا سيجشمني ما لا أطيق، لعدة سنوات قادمة..

باختصار تقمصت دور (أبو على) وليس في جيبي تذكرة أوتوبيس للعودة إلى منزلي (من حسن الحظ أنني من مواليد (طنطا)) ولا توجد ضرورة حتمية هناك للأوتوبيس..

ولأن أهل الخير كثيرون في بلدنا هذا فقد انهالت على النصائح من كل صوب وراح الكل يقترح أي شيء ممكن للحصول على المال اللازم لإتمام الخطبة والزواج.

وبعد استبعاد الاقتراحات الخاصة بتهريب المخدرات والاتجار في البضائع المهربة والعمل كقاتل محترف ولأنني لا أصلح بالطبع لمهنة الراقصة فلم يعد أمامي سوى اقتراحين لا ثالث لهما..

إما أن أفتح عيادة.. أو أسافر لمنطقة داخلية أو خارجية يمكنني منها جنى بعض المال..

وبعد مناقشة قصيرة جدًا باستخدام قواعد العقل والمنطق تم استبعاد فكرة العيادة من الأساس لأن تكاليف فتحها تكفي للخطبة والزواج.. وربما الإنجاب وتعليم الأطفال أيضًا.

ثم أن فكرة الحصول على عقد عمل خارج البلاد كانت تبدو مضحكة بالنسبة لطبيب في نهاية فترة الامتياز اللهم إلا إذا كان هذا العقد في (كوالالامبور) أو بلاد واق الواق..

لذا لم يعد سوى البحث عن فرصة سفر إلى منطقة داخلية.. وهنا اقترح أولاد الحلال محافظة (قنا)..

وكانت حجتهم – حينذاك – هو أن الوزارة تمنحنا الحق في العمل الخاص في فترة التكليف بعد مواعيد العمل الرسمية، كما كان من حقنا الحصول على مقابل للزيارات المنزلية، وفى المناطق النائية مثل محافظة "قنا" يكون دخل هذا العمل كبيرًا بالإضافة على حصولنا على علاوة إضافية..

وعلى الرغم من جهلي التام – حينذاك – بما إذا كان هذا صحيحًا أو حتى قانونيًا فقد قبلت الفكرة على الفور (من باب اليأس بالشيء) وطلبت أن أقضى فترة التكليف في (قنا)..

وظهرت النتائج.. وقبلت الوزارة مطلبي..

وهنا راحت السكرة وجاءت الفكرة..

(قنا)؟! ... الصعيد؟!

لقد قضيت فترة دراستي كلها في (طنطا)، وكان مجرد السفر إلى (القاهرة) يبدو أشبه بمغامرة غير مأمونة العواقب.. فماذا عن السفر إلى (قنا)؟!

أما خطيبتي (زوجتي الحالية)، فقد استقبلت الخبر بوجوم وشحوب وخاصة عندما علمت أننا سنحصل على إجازة لمدة ستة أيام فحسب، كل شهرين..

ولكنها لم تعترض؛ لأنها كانت تعلم مثلي أن هذا هو الحل الوحيد..

والمدهش أن والدها كان أكثر الجميع حزنًا وأغزرهم انفعالاً وحنانًا عندما ذهبت لوداعهم قبل سفري إلى (قنا) مباشرة.

فالحقيقة أن الرجل قد اعتبرني ومنذ خطبتي لابنته ذلك الابن الذي لم ينجبه أبدًا..

والمضحك أن الفكرة قد انغرست في كيانه حتى أنه كان يقول لخطيبتي أحيانا في حماس:

– سلى أخاك.. هل يرغب في تناول بعض الشاي؟!

وكنت أنا اعترض ضاحكًا على صفة الأخوة هذه، التي تحرمني من الزواج منها ولكن لا أحد يمكنه أن يتصور سعادتي مع التلقائية والبساطة التي كان الرجل (رحمه الله) ينطقها بها.

المهم أنني أصبحت مكلفا للعمل في (قنا)..

وكان على أن استعد للسفر إلى هناك..

وفى أسرع وقت ممكن..

وبناءً على هذا، راحت أمي تعد الزاد والزواد، باعتبـار أنني مسافر إلى الصحراء والمجاهـل المـصرية، ولكننـي رفضت بشدة حمل أي طعام (ومازالت هذه عـادتي، حتـى لحظة كتابة هذه السطور) باعتبار أنه مـادام سـكان تلـك المجاهل يجدون طعامًا لأنفسهم، فلن أمـوتَ جوعًـا هنـاك حتمـاً..

وفي محاولة يائسة منها للاطمئنان، أرادت أمي أن تعلمني كيفية طهي الأرز.. أو بعض الخضروات البسيطة..

وكما يحدث دومًا في هذا المضمار، باءت كل جهودهـا ومحاولاتها بالفشل الذريع..

وفي الثاني من مارس عام ١٩٨٢م، حملت حقيبتي إلـى (قنا)، وأنا أتساءل:

- هل ستبدو كمدينة عادية؟

أم أنني سأضطر لشراء رمح لقتال الديناصورات الضخمة هنـاك؟!!

ولأولئك الذين يجهلون هذا، كانت الرحلة، من (القـاهرة) إلى (قنا) تستغرق بالقطار المكيف اثنتي عشرة ساعة كاملة.

لذا فقد بدأ القطار رحلته في الثامنة من مـساء الثـاني مـن مارس ليصل إلى (قنا) في العاشرة في صباح اليـوم التـالي (راجع المدة المذكورة في العبارة، ثم تذكر أن هذا يحدث في (مصر))..

وأخيرًا، أصبحت في (قنا)..

مدينة صغيرة بسيطة، بدت لي مزدانة متألقة، على نحـو غير مألوف، فتصورت أنهم قد علموا بقـدومي، واسـتعدوا لاستقبالي، و..

وقبل أن أتمادى، والقي خطبة عصماء، أو أصافح المارة في الطرقات، أخبرتني لافتة كبيرة أن اليوم.. الثالـث مـن مارس، هو العيد القومي لمحافظة (قنا)..

وهكذا حملت حقيبتي الثقيلة، ورحت أبحث عن مديريـة الشئون الصحية القناوية..

والناس في (قنا) غاية في الشهامة والسخاء والكرم، لـذا فلم أكد ألقى أول سؤال عن مكان المديرية حتى كان هناك من يحمل حقيبتي ومن يقدم لي كوبًا من الماء البارد ومن يـسير إلى جواري إلى هناك مُـصرًا علـى ألا يتركنـي إلا بعـد الاطمئنان على أن كل شيء على ما يرام..

وامتلأت نفسي بدهشة كبيرة مع شعور عارم بالامتنان..

وتساءلت لحظتها: لمـاذا يلقـى الـبعض نكـات عـن الصعايـدة؟!

والواقع أن لو كان هؤلاء هم الصعايدة الـذين يتحـدثون عنهم فهذا يثبت أننا نحن أبناء بحري الذين نستحق أن تقـال عنا النكات..

وبالمناسبة مرة واحد... ولا بلاش...

* ********** *

مركز تدريب (قفط)

نطقها الأستاذ شوقي مدير شئون الأفـراد فـي مديريـة الشئون الصحية في صرامة لم يكن لها مـا يبررهـا وهـو يناولني أوراق تسلم العمل فترددت لحظة قبـل أن أسـأله.. وأين (قفط) هذه؟

رمقني بنظرة نارية غاضبة جعلتني انكمش فـي مكـاني وأراجع كل معوماتي الجغرافيـة بحثا عن مدينـة أو قريـة تحمل اسم (قفط) قبل أن يأمر الأسـتـاذ شوقي بإحضار الفلكة

التي لا أعرف عنها سـوى اسمها أو يطالب بإحالة أوراقـي إلى المفتي..

ولكن ملامح الأستاذ شوقي لانت فجأة وحملـت ابتـسامة كبيرة وهو يقول:

- يا لجهل البحاروه!

(قفط) هذه واحدة من المدن الشهيرة في طريـق (قنـا- الأقصر).. أنها تبعد خمسة أو عشرة كيلومترات فقـط عـن مدينة (قنا)..

وبينما ينطق كلماتـه انتبهـت إلـى ظـاهرة عجيبـة.. فالصعايدة، كل الصعايدة، لا ينطقون حـرف القـاف وإنمـا يستبدلونه في المعتاد بحرف الجيم..

وعلى الرغم من هذا فعلى معظم مـدن المحافظـة تبـدأ بحرف القـاف.. (قنـا).. (قفـط).. (نقـادة).. (قـوص).. (الأقصر)..

وهم بالطبع ينطقونها جنا.. جفـط.. نجـادة.. جـوص.. الأجصر..

ولكن ما شأننا نحن بهذا.. المهم أن الأسـتاذ شـوجى.. معذرة شوقي أخبرني أن سيارة المديرية ستحملني مع بعض

الأطباء الجدد إلى مركز التدريب في (قفط) حيث سنتلقى علومنا الإدارية الأولى التي تؤهلنا للعب مع الشياطين..

احم.. أعني مع كتبة الوحدات الصحية..

ومنذ اللحظة الأولى كانت في انتظاري مفاجأة في (قفط).. أنها ليست وحدة صحية وإنما مستشفى قروي ومركز لتدريب الأطباء الجدد..

أو بالتحديد ثلاثون طبيبًا شابًا سيقيمون معًا في صالة كبيرة تتراص فيها الأسرة كما يحدث في الوحدات العسكرية..

ثم أن الدولة ستتكفل لنا الإقامة فحسب..

وليست التغذية..

وسقط قلبي بين ضلوعي.. كيف سأقيم مع كل هذا الحشد الذي لا تربطني به أية صلة؟!

ثم ماذا سنفعل في أمور التغذية؟!

واسترجعت حديثي الأخير مع أمي، ورفضي حمل أية مأكولات، ورجت ابحث عن الحذاء، الذي خلعته منذ قليل..

ليس لأرتضيه، ولكن لأضرب نفسي به..

لماذا لم تجبرني أمي على حمل الطعام؟!

كان ينبغي أن تهددني بمسدس..

أو حتى بمدفع آلي..

ولكن هذا ما جنيته على نفسي، ولم يجن عليَّ أحد..

ولكن ما باليد حيلة..

لا مفر من الاستسلام..

والجوع..

ولكن ذلك الجوع، كما يقولون، كافر لا يرحم..

لذا كان من الضروري أن نسعى جميعًا للبحث عن الغذاء.. ولكن الأسوأ أنه كان من المحتم أن نتولى أمر نظافة العنبر أيضًا..

ومع الأيام الأولى، شعرت أننا لسنا في مركز تدريب..

بل في معتقل..

كلاَّ.. لست أعتقد أن الوصف الصحيح؛ لأنه من المؤكَّد أن المعتقلين يجدون بعض الطعام على الأقل..

ولأننا غرباء، والغريب أعمى، ولو كان مبصرًا، كما يقول المثل..

ولأننا أكسل من تنابلة السلطان أيضًا، فإننا لم ننتبه إلى وجود سوق في (قفط)، إلا بعد أن بدأ بعضنا يرى سرابًا، من شدة الجوع والعطش..

الشيء الوحيد، الذي كان يدفعنا إلى النشاط والحركة كان قطار القصب..

وقطار القصب هذا هو قطار قديم، يبدو لي أشبه بذلك النوع، الذي كان يظهر في أفلام رعاة الأبقار الأمريكية، فقط ليطارده الهنود الحمر..

وفي قفط، كان ذلك القطار القديم هو الوسيلة الوحيدة، لنقل قصب السكر، من الحقول إلى المصنع..

وكنا نحن الهنود الحمر..

فما إن يلوح قطار القصب في الأفق، أمام عيوننا وبطوننا الجائعة، حتى ننفض عن أنفسنا الكسل، ويدب فينا نشاط الهي، وننطلق لنعدو خلف القطار، للحصول على بعض القصب..

وبعض الشبع..

ولست أدرى كيف لم انتبه، إلا لحظة كتابة هذه السطور، إلى ما في هذا المشهد من غرابة، في قلب الصعيد!!

وأكاد أتصور إخواننا الصعايدة، وهم يقفون في حيرة وبلاهة، متطلعين إلى الأطباء المحترمين، وهم يجرون بالبيجامات والشباشب، خلف قطار القصب..

ومن حسن الحظ أنهم لم يشاهدونا ونحن نأكله..

هذا كان سيكفى ليتصوروا أن أبناء البحاروة من أكلة لحوم..

القصب..

وهذا يكفى لإثبات أن الجوع يطلق صوت المعدة..

ويخمد صوت العقل..

ويبدو أن جوعنا قد أثار شفقة احد الزملاء، وكان من محافظة (قنا) نفسها، فتكرم بإحضار كيس من الخبز الشمسي (وهو نوع من الخبز الصغير (المدملك)، الذي يتم تخميره في أشعة الشمس قبل وضعه في الفرن)، وبطة..

نعم.. إنكم لم تخطئوا القراءة..

لقد أحضر لنا بطة..

ولكن لا تفزعوا، أو تتصوروا أن الأطباء الثلاثين قد انقضوا كالوحوش على تلك البطة البريئة المسكينة (المذبوحة)..

فالواقع أن ذلك الزميل (الخبيث) لم يفعل هذا، إلا بعد أن أطمئن أن الجميع تقريبا قد انهاروا، وفروا عائدين إلى بلادهم (ربما لتناول وجبة أو وجبتين)، ولم يتبق منا سوى سبعة بالإضافة إليه..

أي أنه كان لكل منا ثمن بطة..

وهذا يعد وجبة دسمة متخمة، لمن اعتاد تناول جناح عصفور كل ثلاثة أيام.. هذا وأصيب العصفور بأزمة قلبية وسقط ميتًا من تلقاء نفسه..

المشكلة الوحيدة هي أن السادة الزملاء أصروا على أن أقوم أنا بطهو البطة!!

لقد أصابني نفس ما أصابكم من فزع، وحاولت إقناعهم بأرجاء التجربة إلى مناسبة أخرى، يكون فيها أحدهم قد من علينا بعلبة سردين أو تونة، ولا داعي للمخاطرة بالبطة المسكينة..

ولكنهم أصروا.. وأصروا..

ولم يعد أمامي سوى الاستسلام..

والبكاء على البطة..

وشمرت عن ساعدي، وحاولت أن استرجع ولو سطرا واحدا من دروس أمي عن الطهي..

أو حتى عن طرق إشعال الموقد..

ولقد كان لدينا موقد واحد صغير، يمكنك أن تصنع عليه كوبًا من الشاي، خلال مدة قياسية، لا تزيد على الأسبوعين..

وكان من المفترض أن أطهو البطة وكثيرًا من الأرز، على هذا الموقد..

وهكذا استيقظت من السادسة صباحًا ووضعت كثيرًا من الماء، في الحلة الوحيدة لدينا، ألقيت فيها الأرز، ووضعته على الموقد الصغير، وجلست أنتظر..

وأنتظر.. وأنتظر..

وأيضا أنتظر..

وفى منتصف النهار بدأ الماء يغلى.. وكانت معجزة..

وبحسبة بسيطة، أدركت أن البطة سـيتم طهيهـا خــلال أسبوع على الأقل، وهذا بعد أن ينتهــي طهــي الأرز، فــي الصباح التالي على الأرجح..

وهنا تفتق ذهني عن فكرة عبقرية..

وبمنتهى الهمة، صنعت حفرة كبيرة في قلب الأرز..

ودفنت فيه البطة (دون أن أترك بـصماتي فــي مــسرح الجريمة بالطبع)..

وفى حيرة، سألني الزملاء:

- أهذا ممكن؟!

بمنتهى الحماس والثقة (الزائفة)، هتفت:

- بالطبع.

ولم يعترض أحد؛ لأنهم (كما ثبت فيما بعد)، كانو أكثـر موهبة مني في عالم الطهي.

وفى السادسة مساءًا بدا من الرائحة أن الأرز قد نضج..

والبطة داخله بالطبع..

وسال لعاب الجميع، ونحن نحمل الوعــاء إلــى مائــدة الطعام، وقد بدا ساقا البطة واضحين خارج الأرز..

وفى حماس، جذب أحد الزملاء ساق البطة..

ولكنه فوجيء بأن ما صعد إليه لم يكن الساق وحدها..

كانت البطة كلها، مع الأرز كله الذي تحول إلى عجينــة متماسكة، لم تلتصق بقاع الوعاء..

ولم تعد تصلح للاستخدام الآدمي.. وكذلك البطة..

صحيح أن الكل ثار، وهاج، وماج، وانهال على بالعبارات الغاضبة الساخطة المستنكرة..

ولكننا في النهاية أكلنا الأرز.. والبطة..

ألم أقل لكم: أن الجوع كافر..

جــدًا!!

* ********* *

أسبوع واحد وتنتهي فترة التــدريب، بعــد أن احتــشدت عقولنا بعشرات القواعد واللوائح الإدارية، ودفــاتر العهــدة، واستمارات ١١١، ١١٢، ١١٨ ع. ح.

وفوجئنا بأننا سنخوض امتحانًا في الأمور الإدارية..

امتحان؟!

ألن تنتهي الامتحانات أبدا؟!

وسألنا عن أرقام الجلوس وأقرب مكتبة لبيع أوراق تصلح للبرشام. و.... و....

وأدركنا جميعًا أن فترة التدريب قد شارفت الانتهاء..

وأن كلاً منا سيفترق عن الآخرين، وسيذهب إلى وحدة صحية، يقم فيها بعمل الطبيب البشرى، وطبيب الصحة، والطبيب الشرعي، والصيدلي، وطبيب المعامل، ومدير المخازن، ومسئول الثقافة الصحية، و.....

وكل هذا مقابل راتب ضخم يبلغ (ستين) جنيهًا مصريًا لا غير..

ولست أدرى لماذا ذكرني هذا بالفنان (فؤاد المهندس)؟!

والعجيب أنني شعرت بالأسف الشديد، لأنني سأفترق عن تلك المجموعة، التي قضيت معها شهرين كاملين، في عنبر واحد..

ربما لا أذكر الأسماء كاملة، ولكن كان هناك (محمود ياسين) (ليس الممثل المعروف بالطبع)، و(فارس)، و(أسامة)، و(مدحت عبد الفضيل)، و(عثمان)..

كل منا سيذهب إلى مكان منفرد، في قرية من قرى محافظة (قنا)..

ويبدو أن شعوري هذا كان هو نفسه شعور الجميع، فقد ساد الوجوم المكان، وانخفضت درجة المرح، وبدا وكأن كلاً منا يشعر بالحزن، لأننا أخيرًا سنفترق..

نفس الحزن، الذي شعرنا به، عندما أدركنا أننا سنجمع في عنبر واحد في النهاية..

وما أغرب النفس البشرية!!

ولكن حتى تلك الأيام الأخيرة لم تنته دون موقف ما..

فقبل امتحان الإداريات بيومين فقط، كان زميلنا الصعيدي هو المسئول عن إعداد الطعام، وكنت أجلس معه وحدي في العنبر، في حين ذهب الآخرون لقضاء بعض الوقت في مدينة (قنا)..

كان يستعد لعمل وجبة من المعكرونة، عندما راودتني فجأة فكرة العبث معه قليلاً..

ولقد عجزت عن كتمان تلك الرغبة، فسألته متظاهرًا بالهدوء واللامبالاة:

– هل قمت بغسل المعكرونة قبل طهيها؟!

حدق في وجهي بدهشة، وسألني:

– وهل يتم غسل المعكرونة قبل طهيها؟!

نظرت إليه باستنكار، وأنا أؤكد له أن هذا أمر حتمي؛ لأننا كنا نبتاع المعكرونة المعبأة في أجولة ضخمة، معرضة للتراب والغبار..

ومن الواضح أن منطقي قد أقنعه، فقد قام بكل حماس، وغسل المعكرونة، ثم وضعها فوق في الشرفة لتجف، قبل أن يقوم بإعدادها، وأنا أكتم ضحكتي في أعماقي وأتظاهر بالانهماك في القراءة.. وعندما عاد الجميع، كانت المعكرونة قد تحولت إلى عجينة..

وغني عن القول أنني أنكرت تماما في التحقيقات، أنني قد نصحته بغسل المعكرونة..

باختصار، كانت عمليه نظيفة مائة في المائة، خرجت منها مثل الشعرة في العجينة..

عجينة المعكرونة..

المهم أن الموقف قد مر بسلام، وتحولت إلى نكتة جديدة تضاف إلى نكات الصعايدة، ورحنا جميعًا نستعد للامتحان..

ثم جاء الامتحان..

الأساتذة الأطباء، مديروا الإدارات الطبية، أعطونا الأسئلة والأجوبة، والدرجات.. وانتهى الأمر قبل أن يبدأ..

وهكذا، انتهت فترة التدريب وبدأنا نستعد للتوزيع..

وهنا عاد النشاط يدب في الجميع، وراح كل من الزملاء يسعى للحصول على وساطة، ليتم توزيعه على وحدة صحية مناسبة. وفى ذلك الحين كان لي قريب في منصب مدير إدارة الطب البيطري، وكان صديقًا لمدير مديرية الشئون الطبية في (قنا) وقد عرض على قريبي هذا أن يرسلني إلى أي مكان أشاء.. ولكنني كنت، ومازلت أؤمن بالقدرية، في مثل هذه الأمور..

لست أحب أبدًا أن أختار المصير، في الأمور التي أجهلها.. إنني أترك الأمر كله لله (سبحانه وتعالى)، حتى يمكنني قبول أية نتائج فيما بعد، دون أن أشعر بالندم..

وهكذا تم عمل القرعة التقليدية؛ لتوزيعنا على القرى والمراكز المختلفة..

وعندما سحبت الورقة الخاصة بي، وجدت بها اسم قريــة لم اسمع بها من قبل قط..

(أبو دياب شرق)..

وعندما سألت عن موقع القرية، التي سأذهب إليها، تطلع إلى الجميع بإشفاق واضح، ثم ربت أحدهم على كتفي، وهــو يبلغني أنها تبعد سبعة وأربعين كيلومترًا عن مدينــة (قنــا)، وأنها تتبع مركز (دشنا)..

الأمر الوحيد، الذي لم يبلغني به، هــو أنــه، مــن بــين الكيلومترات السبعة وأربعين، كان هناك أربعــة وعــشرون كيلومترًا فقط على الطريق الإسفلتي.. أما الثلاثة والعشرون كيلومترًا الأخرى، فكانت في قلب الجبل..

أو كما يقول الصعايدة..

في حضن الجبل..

وكان هذا يعنى أن كل ما رأيته، منذ وصولي إلى (قنا) كان الصعيد البرانى فحسب..

وأنه منذ هذه اللحظة، سأبدأ رحلتي في حضن الجبل..

في الصعيد الجواني.. جــدًا...



٦) أبـو ديـاب شـرق

اسم أثار في نفسي خوفاً مبهما، كلما رددته في أعماقي، وأنا أعد حقيبتي الوحيدة، استعدادًا للانتقال من سطح الصعيد إلى أعماقه.

ولست أدرى لماذا انطبع في ذهني اسم (أبو دياب) هذا بوجه صارم، لقاتل صعيدي محترف، ضخم الجثة، كث الشارب، معقود الحاجبين، يحمل (البندجية).. أقصد البندقية، ليلبد بها في حقول الذرة، و(يطخ) الرائح والغادي..

ربما كان هذا مجرد بقايا أو ترسبات قديمة، من مسلسل تليفزيوني رأيته في طفولتي، أو بعض الرسوم الكاريكاتيرية، التي كان يبدعها العمالقة آنذاك، أمثال (صلاح جاهين) والليثي رحمهم الله، والفنان حجازي وغيره أبقاهم الله..

المهم أنني لم استطع إغماض عيني لحظة واحدة أثناء الليل، متصورًا أن أبو دياب إياه سيفط من أسفل فراشي بغتة، في مركز التدريب، صارخًا:

- أثبت يا ولد..

ثم يطخني عيارين..

وفى كل مرة كنت أقفز من نومي صارخا:

- (أبو دياب).. (أبو دياب)..

ولكن كل الشهود أجمعوا على أنني لم أحدد ما إذا كان (أبو دياب شرق)، أم (أبو دياب غرب)، ولكن الأرجح أنه كان (أبو دياب شمال شرق)..

المهم أنني استيقظت في اليوم التالي بوجه شاحب، وعيون منفخة، وقلب ينبض ألف نبضة في الدقيقة، لأكشف أنه لن يتم توزيعها مباشرة، ولكن أن نستكمل بعض الأوراق في مديرية الشئون الصحية أولا..

وهنا قفزت إلى ذهني فكرة مجنونة..

لماذا لا انتهز الفرصة، وأذهب لرؤية قرية (أبو دياب شرق) هذه؟

وسيطرت على الفكرة، حتى إن كل ذرة في كياني صارت تتلهف إلى رؤية ذلك المكان، الذي سأقضى فيه عامًا على الأقل..

وما أن أخبرنا الأستاذ (شوقي) أن الأوراق تحتاج إلى يوم أخر لاستكمالها، حتى هرعت من فوري إلى موقف السيارات الأجرة لأسأل:

- كيف أذهب إلى (أبو دياب شرق) وحياة والدك؟!

ولأن الشهامة متأصلة للغاية في إخواننا الصعايدة، فلم تمض ربع ساعة، حتى كان أحدهم ينزلني من سيارته (دون أن يتقاضى أجرة)، عند موقف سيارات (دشنا)..

وبالتحديد (أبو دياب شرق)..

وما إن أخبرت السائقين أنني طبيب الوحدة الصحية الجديد، حتى انهالت السلامات والتحيات، وانفتحت أبواب السيارات، وسرقني السكين كما يقولون، فلم أشعر إلا وأنا أنطلق في سيارة الأسطى (عبد الله)، إلى (أبو دياب شرق)..

وفي الطريق، راحت السكرة، وجاءت الفكرة..

لقد جاءت هذه الفكرة بالتحديد، عندما انحرفت السيارة عن الطريق الإسفلتي، وبدأت تنطلق نحو مجاهل وجبال مخيفة، عبر طرق ترابية غير ممهدة..

في البداية، تصورت أن السير في هذه المجاهل سيستغرق خمس أو عشر دقائق على الأكثر، ثم راح قلبي يدق في

عنف، بعد ربع الساعة الأولى ثم ارتجف مذعورًا بعد ثلث الساعة، وسقط بين قدمي مع الدقائق الخمس التالية، قبل أن اسمع الأسطى (عبد الله) وهو يقول في حماس:

- الوحدة الصحية يا (باشا)..

وفي ظروف أخرى، كان اللقب سيسعدني بشدة (على الرغم من بغضي للألقاب)، ولكن في تلك اللحظات هناك، في حضن الجبل، كنت مستعدًا للتنازل عن لقب (أفندي)، مقابل لحظة من الشعور بالأمان..

فتلك الوحدة الصحية، التي ظهرت فجأة، مع دوران السيارة حول مرتفع صخري، كانت مجرد بناء بسيط، نصفه من طابق واحد، والنصف الآخر من طابقين، وسط فراغ ضخم، تبدو في نهايته قرية يختفي معظمها خلف الأشجار..

باختصار، كانت هي بالضبط ذلك المكان، الذي يصفونه بأنه لا يحوي (صريخ ابن يومين)..

وعندما ابتعدت سيارة الأسطى (عبد الله) واختفت في الأفق صرت أنا ذلك الـ (صريخ) ولكن ابن كذا ألف يوم..

ومع نفس عميق، وقراءة المعوذتين، والاتكال على الله (سبحانه وتعالى)، صعدت إلى الوحدة الصحية..

في البداية تصورت مع الصمت والسكون أن المكان مهجور، يصلح لأحد أفلام (ألفريد هتشكوك)، ثم لم ألبث أن شعرت بحركة في الطابق الثاني، فصعدت إليه، وطرقت الباب، و... انفتح الباب..

وأمامي مباشرة، رأيت رجلاً قصير القامة، أشيب الشعر، ممتلئ الجسم، يميل رأسه على اليسار، حتى ليكاد يستند إلى كتفه، وهو يرمقني بعينين محمرتين نفاذتين..

وبهدوء (افتعلته طبعًا)، أخبرته أنني طبيب الوحدة الجديد..

وانطلقت صرخة استنكار واستهجان قوى، كادت تدفعني للقفز من الطابق الثاني، والجري بكل قوتي، بمنتهى الرعب والذعر، حتى أبلغ مدينتي (طنطا)..

ولكن العجيب أن تلك الصرخة لم تنطلق من بين شفتي ذلك القصير..

بل من داخل الوحدة نفسها..

لقد أطلقها الدكتور (محمد)، طبيب الوحدة الإسكندراني، الذي استقر به المقام لأكثر من عام، دون أن يتصور أن أحدًا سيقتحم حياته هكذا بغتة، ويشاركه أرباحه وغنائمه..

وعلى عكس الحفاوة، التي استقبلني بها (حجاج)، كاتب الوحدة (وما أدرك ما كاتب الوحدة)، كان الدكتور (محمد) جافًا غاضبًا ثائرًا، يتمنى لو يلقى به في أعماق الجحيم، أنا أبلغه أنني سأتسلم العمل منه بعد يومين فحسب..

ولم تستغرق زيارتي هذه سوى دقائق قليلة، لم تكمل نصف الساعة، قبل أن ترهقني ثورة الدكتور (محمد)، التي لم يحاول حجبها أو إخفائها، وأقرر العودة إلى (قفط) بأي ثمن..

وصاحبني (حجاج) برأسه المائل ونظراته النافذة، لنقف عند الطريق في انتظار أية سيارة تعيدني إلى (قنا)، وراح يتحدث معي بمودة شديدة ويؤكد لي أن الحياة في هذا المكان الكئيب ستروق لي جدًا، إذ يبدو أنه تصور أنني مصاب بالهلوسة أو الاكتئاب الذهني لسبب ما..

وفى (قنا)، عدت أحزم حقيبتي الوحيدة، واستعيد ما فعله معي الدكتور (محمد)، ثم أتساءل عما إذا كان من الضروري أن اشترى طبنجة لحماية نفسي، أم أنني أستطيع استئجار أحد أبناء أبو دياب كحارس خاص؟!

كنت أفكر في هذا، دون أن أدري أنه ولا الجن الأزرق، يمكنه أن ينقذني من زميل الوحدة الصحية..

هذا لأنه كان وبمنتهى البساطة والوضوح، بخيلاً.. وطوال ستة أشهر كاملة، عشت جحيم البخل هذا في أسوأ صورة..

وقد يعترض البعض منكم على وصف الجحيم هذا، ويتصور إنه يحوي بعض المبالغة، لذا فمن المحتم أن أنقل إليكم بعض نماذج هذا البخل، على الرغم من كراهيتي لاستعادتها..

فذات يوم مثلاً، وفى أعقاب عيد الفطر المبارك، عدت إلى الوحدة بصندوق من الكعك والبسكويت، أصرت والدتي باستماتة على منحى إياه (ولم أقاوم أو أعارض بالطبع، بعد مرحلة الجوع الكافر التي عشتها في مركز التدريب)، وكما علمونا، وضعت الصندوق مفتوحًا على منضدة الصالة، ليأكل منه كل من يشاء فالطعام والشراب لكل فم، كما أكد لي الجميع منذ طفولتي..

وفى كل صباح، كانت عاملة الوحدة لنا كوبين من الشاي، ويخرج الدكتور (محمد) من حجرته ليشرب كوبه ويأكل معه كل ما يحلو له من صندوقي..

حتى نفذت محتويات الصندوق تمامًا..

واعتبارًا من اليوم التالي، ولفترة محدودة، كان الدكتور (محمد) يخرج كل يوم من حجرته بكرم حاتمي، حاملاً قطعتين من الكعك ليلتهمهما وحده بمنتهى البجاحة، مع كوب الشاي ثم يخرج لأداء عمله، وكأن شيئا لم يكن وبراءة العيال في عينيه..

مرة أخرى كان يستعد لشراء مستلزمات العشاء، فسألني عما أرغب في تناوله، وبمنتهى البراءة، أخبرته أنني آكل كل شيء، فيما عدا المربات..

ومن المؤكد أنكم قد استنتجتم ما حدث، وخاصة عندما تعلمون أننا كنا ندفع كل المصاريف مناصفة..

لقد أحضر ست علب مربى، وعلبتين جبن أبيض..

واشتعل غضبى مع هذا الموقف السخيف، فما كان مني إلى أن حملت ثلاث علب مربى، وجلست في الشرفة، التهمها دون خبز أمام عينيه، اللتين أطل منهما ألم ومرارة وحسرة الدنيا كلها، حتى أتيت عليها عن آخرها..

وكل هذا وأنا أكره المربى (وربما كان هذا هو سبب تلذذي من أكل المربى في هذه الأيام)..

الواقعة الثالثة، هي أنه عندما غادر نهائيًا (وكانت أول مرة أشعر فيها بالسعادة؛ لأننا في (قنا)، بلدة القلل)، عثرت أسفل فراشه على أطنان من قشر الموز والبرتقال وأوراق البسكويت، وعلب الجبن الفارغة التي كان يحضرها إلى حجرته، ويلتهمها سرًا حتى لا أراه أو أشعر به..

لكن أسوء موقف عمله معي في فترة عملنا معًا وهو عندما أصابني التيفويد ذات مرة..

ففي تلك المرة لم نجد في الوحدة كلها سوى شريط واحد من (كلورامفينيكول)، وكان هو العلاج الوحيد للمرض آنذاك..

وبشهامة أحضر الكاتب (حجاج) ذلك الشريط، وعاونني على ابتلاع كبسولتين منه على الفور، على أن أتناول مثلهما كل ثماني ساعات..

ولكن الشريط اختفى تمامًا..

ولم تكن المواصلات متوفرة لمدينة (قنا) في الليل، وقلب (حجاج) المكان كله بحثًا عن الشريط وحالتي تسوء أكثر وأكثر، والدكتور (محمد) المحترم هادئ جدًا، ولا يعلق على ما يحدث بحرف واحد..

ثم فجأة وبمصادفة عجيبة كشف (حجاج) الشريط الفارغ من الكبسولات، في حجرة الطبيب المحترم..

لقد سرق الشريط (علاجي الوحيد) وابتلع الكبسولات بانتظام ليحمي نفسه من العدوى، حتى ولو أدى هذا إلى موتي أنا!!

هل يكفيكم هذا..

عظيم.. دعونا ننتقل إذن إلى نقطة أخرى..

فمنذ يومي الأول في (أبو دياب شرق)، وكعادتي في كل مكان جديد، رحت استكشف كل ما حولي بمنتهى الاهتمام..

وأول ما لاحظته هو أن القرية تنقسم إلى فريقين كبيرين..

العرب.. والهوارة..

كل فريق منهما له عالم خاص به، يصعب اختراقه، وكشف أعماقه ومكنوناته..

وبالذات عالم الهوراة..

أنه عالم أشبه بعالم النازية.. وأساطير السامية..

فيه محدودية وتعال وقوة وغطرسة وزهو حتى أن الهوارة يتصورون أنهم أفضل خلق الله (سبحانه وتعالى)، فلا

ينبغي عليهم أن يمتزجوا بباقي البشر، ولا أن يشاركوهم، أو يصادقوهم، أو يزوجوهم بناتهم..

لا بأس عندهم في أن يتفضلوا بالزواج من بنت حواء أخرى، من أي مجتمع، باعتبار أنهم - طبقًا للفكر الجنوبي - سيسيطرون عليها، وعلى عائلتها أيضًا.. أما أن يمنحوا بناتهم لجنس أخر، فهذا هو المستحيل بعينه..

وعلى الجانب الأخر تجد العرب، بتماسكهم واعتدادهم، وإصرارهم على إثبات حسن منبتهم وأصالة وجودهم..

كل المهن المتطورة، كان يمتهنها العرب وحدهم..

أما الهوارة، فهم أصحب الأرض الواسعة، والثروات الضخمة والسطوة والنفوذ والقوة..

ولأن الإحساس وحده يكفي بعض البشر، فقد كانت منازل العرب أنيقة بسيطة نظيفة عصرية.. إلا فيما ندر.. أما منازل الهوارة.. فـ... ولا بلاش..

برضه إلا فيما ندر..

ونساء العرب تشبهن في أزيائهن وتصرفاتهن، نساء المناطق الشعبية البسيطة في مصر، وهن مرحات تلقائيات ومهذبات للغاية بالطبع..

أما نساء الهواره، فمن المستحيل أن تصف أزياءهن؛ لأنهن يرتدين (البردة) طوال الوقت..

وتلك البردة عبارة عن شيء أشبه بالبطانية، مصنوع من الصوف، وعلى أية هوارية أن ترتديه، ما دامت خارج المنزل، ولا تظهر منها سوى عين واحدة، ترشدها إلى الطريق، بدلاً من العصا والكلب الوولف..

أما العين الثانية، فهي قلة أدب، ما دام يمكنها أن ترى بعين واحدة..

وإذا ما مرضت عربية، فهي تأتى إلى الوحدة للكشف الطبي، أو يطلبك زوجها علنًا، لمعاودتها في منزلها..

أما الهوارية، فمرضها له طقوس مختلفة..

ففي أغلب الأحوال يتم تركها للطبيعة، فإما أن تشفى وحدها، أو ترتاح من عذاب الدنيا..

أما لو كان زوجها متفتحًا، فالأمر يختلف..

سيأتي لزيارتك سرًا، بعد منتصف الليل بساعة، أو ساعتين، وهو يخفي وجهه بوشاح سميك، وبعد أن يباغتك، ويقطع ولدك، ويخبرك بكلمة سر الليل، سيطلب منك بخشونة أن تعد حقيبتك وتتبعه..

ووسط الحقول والظلام، ومع موسيقى فحيح الثعابين وعواء الذئاب الشجي، تتسللان معًا إلى منزله، وتقطعان الأسلاك الشائكة، وتتجاوزان حقول الألغام، حتى يمكنك أن توقع الكشف الطبي على زوجته، التي تعانى من مغص كلوي حاد، منذ شهر واحد فحسب، دون أن ينتبه هواري آخر إلى هذا العار..

ولكن الحق يقال، لقد كانوا جميعًا في منتهى الكرم، فبعد كتابة الروشته، كانو يعيدونني إلى الوحدة الصحية (تسللاً طبعًا)، دون أن يتركوني طعامًا للذئاب، أو يطلقوا علي النار، حتى يموت معي السر العظيم..

وفى أحوال أخرى، كنت تجد أمامك عملاقًا ضخمًا، عريض المنكبين، كث الشارب والحاجبين، غليظ الملامح، يشكو لك من أعراض غريبة، لا يمكنك معها إلا أن تصافحه، وأنت تبتسم في ارتباك قائلاً:

- مبروك.. جنابك حامل في شهرين..

فالأعراض التي يصفها بمنتهى الدقة، تعانى منها زوجته وليس هو، ولكنه يأتي للكشف بدلاً منها حتى لا تنكشف على رجل أخر..

ومن أطرف المواقف التي واجهتها، بسبب هذه العادات المتوارثة، هو أنني قد تسللت يومًا إلى منزل أحدهم، في الثانية صباحًا، لأجد أمامي بابًا مغلقًا، به ثقب في منتصفه، ومن الثقب يبرز إصبع لامرأة، التهب أظفرها، وامتلأ بالصديد..

وبمنتهى العناد والإصرار، رفض زوجها أن أقوم بقياس درجة حرارتها، أو مستوى ضغط الدم لديها، باعتبار أن الإصبع هو المصاب، وها هو ذا أمامي، فما الذي أريده أكثر من هذا؟!!

قلة حياء.. منى طبعًا..

ولكنها تقاليدهم على أية حال، ومن الضروري أن نحترمها، حتى ولو اختلفنا معهم ألف مرة، وإلا فعلينا أن نعذر الغرب عندما يتهمنا بالتخلف، لمجرد أن البنت عندنا تحافظ على عذريتها حتى الزواج!!

وعلى أية حال فمهما اختلف العرب والهواره، في تاريخهم وعاداتهم وتقاليدهم، فهم يتفقون جميعًا في عادة واحدة ومزية لا يدانيهم فيها أحد..

الكرم..

كرم حاتمي مدهش، يبهرك في البداية ثم يخلب لبك كله فيما بعد..

وبسبب هذا الكرم، لم أكد أضع قدمي في القرية، حتى وجدت أمامي أكثر من عشر دعوات لتناول الغذاء أو العشاء عند أكابر الهواره والعرب على السواء، بدءًا من العمدة وحتى فتحي أمين، الذي صار أفضل أصدقائي فيما بعد..

وبمنتهى الجدية والحزم أخبرني الكاتب (حجاج) أنه من العار.. كل العار أن أرفض دعوة من شخص منهم، وأنه من الضروري أن أرتب الدعوات، بحيث يمكنني تلبيتها كلها في أيام معدودات.. وتصورت أنا، بكل البراءة، أن الأمر بسيط للغاية..

وذهبت لألبى دعوة العمدة في البداية..

وعلى مائدة الطعام، وجدت أمامي طنًا من اللحوم الدسمة للغاية، والتي تسيل منها كمية من الدهون، تكفى لفتح مصنع سمن طبيعي..

هذا بالإضافة إلى الويكة والملوخية بالطبع..

والويكة، لمن لا يعرفها، هي بامية، يتم طهيها دون صلصة، باستخدام الماء والثوم فحسب..

وأنا أعلم هذا، ليس لأنني قد تعلمت الطهي (فالأيسر أن أتعلم الهيروغليفية)، ولكن لأنني ظللت آكل الويكة والملوخية دون سائر أنواع الخضروات الأخرى، لمدة عام ونصف بلا انقطاع.. ولهذا قصة أخرى..

المهم أنه كان على أن أتناول وألتهم نصف طن الدسم هذا على الأقل، حتى لا يصاب الداعي بالإحباط، ويتصور أنني قد أهنته برفض طعامه..

ولقد بذلت قصارى جهدي، حتى كادت معدتي تنفجر، ثم شربت بعدها كوبًا من مادة سوداء كالحبر، عرفت فيما بعد أنها الشاي، ولكنهم هنا يعدونه في كنكة البن الصغيرة، بمقادير مدهشة إذ يوضع في الكنكة كيلو من الشاي، مع كيلويين من السكر، مع إضافة الماء، والتقليب لمدة أسبوع أو أسبوعين..

وعندما يتحول المزيج إلى شيء أشبه بالقار، يتم صبه في أكواب صغيرة جدًا، و...

معذرة.. يتم صبه في كوب واحد، اشرب منه أولاً (وهذه هي الحسنه الوحيدة في الأمر)، ثم يصب فيه الشاي للآخرين، طبقًا لمنزلتهم الاجتماعية..

وغادرت دوار العمدة، وقد أصبحت فجأة أشبه بالممثـل الراحل (عبد الفتـاح القصري)، بكـرش ضـخم أمـامي، وعينين أصابهما الحول، وعقل لم يعد يبحـث سـوى عـن (نورماندي تـو)..

وباغتني (حجاج) بأنه هناك دعوة تنتظرنا على العـشاء، في منزل الحاج (علي)، كبير العرب..

ولأنه من العار أن ارفض الدعوة، أو حتى اعتذر طالبًـا تأجيلها لموعد أخر، ذهبت إلى منزل الحاج (علي)..

وكان الطعام مختلفًا تمامًا، باعتبارها وجبه عشاء.. طـن من اللحم الغارق في الدسم.. مع (الويكة) والملوخية بالطبع..

وتساءلت وأنا اجلس على المائدة في آسى:

– ترى هل توجد وسيلة لـدحرجتنا إلـى الوحـدة بعد العشـاء؟!

ولكم أن تتصوروا أن هذا الأمر قد تكرر، على المنـوال نفسه، طوال سبعة أيام كاملة بلا توقف، و...

ترى هل رأى أحدكم مركبتي (نورماندي تن)؟!

* ********** *

رجل المستحيل.. أوراق لم تنشـر

ستة اشهر كاملة، قضيتها في الوحدة الصحية فـي (أبـو دياب شرق)، بصحبة الدكتور (محمد)، وبخلـه، وتـصرفاته الأنانية السخيفة..

ستة اشهر، وأنا آكل (الويكة) والملوخية يوميًا..

وذات يومي الخميس والجمعة في (قنا)، حتـى يمكنني تناول وجبة طبيعية على الأقل..

وفي صباح الخميس، ارتديت ثيـابي، وحملـت حقيبـة صغيرة، وانتظرت أول سيارة أجرة قادمة علـى الطريـق، وانطلقت بها إلى مدينة (قنا)، متصورًا أنني انطلق من السجن إلى الحرية..

وما إن وصلت (قنا)، حتى انطلقت أسير في شـوارعها، كطائر غادر قفصه، بعد حبس طويل..

ولكن فجأة، كشفت أن شوارع المدينة كلها قد انتهت..

لقد قطعتها كلها خلال ساعة واحدة..

ولكنني قلت لنفسي:

– لا تدع هذا يحبطـك.. تمتـع بوقتـك، مهمـا كانـت المنغصات..

وكأي سجين محروم، رحت ابحث عن أهم شـيء فـي الدنيا.. عن مطعـم..

وبسرعة لم أكن أتوقعها، عثرت على مطعم بسيط أنيـق، فوثبت إلى أقرب مائدة خالية (الواقع أن كل الموائـد كانـت خالية)، وطلبت قائمة الطعام..

وبدهشة حقيقية، سألني الرجل:

- أية قائمة؟!

حاولت توضيح الأمر أكثر، وأنا أقول بابتسامة كبيرة:

- القائمة.. تلك الورقة الكبيرة، التي تحوي كل ما لـديكم من أصناف الطعام.

وهنا ابتسم الرجل بعد أن فهم ما أعنيه (أو هكـذا خيـل إلي)، وقال:

- وما الحاجة إلى ورقة؟! أنا سأخبرك ما لدينا.

وشعرت بالدهشة مع كلماته، فكيف يمكن لشخص مـا أن يحفظ قائمة طعام كاملة بهذه البساطة؟!

ولكن هذه الدهشة زالت بسرعة، عندما علمت أن ما لديهم ثلاثة أصناف فحسب، بخلاف الأرز طبعًا..

فهناك البطاطس..

ثم (الويكة) والملوخية..

وبمنتهى الإحباط، طلبت طبقًا مـن الأرز، وآخـر مـن البطاطس المطبوخة، و..

لا داعي، فالذكريات السيئة تؤلم أحيانًا..

المهم أنني قد قضيـت اليوم بطوله في (قنا)، على نحـو أو آخر، حتى أتى المساء..

وعندما يأتي المساء، لا يفكر المرء إلا في أمر واحد..

النـــوم..

وهنا بدأت رحلة البحث عن فندق..

وكانت الصدمة الكبرى..

كل غرف الفنادق مشغولة بالكامل، وكل سيارات الأجرة، الذاهبة إلى (أبو دياب شرق) رحلت..

وسقطت أنا بين المطرقة والسندان..

وبمنتهى الذعر، رحت أتساءل: كيف سأقضي ليلتي؟!

وعلى أي رصيف؟!

ويبدو أن الذعر كان قد حفر خطوطه بمنتهى الوضـوح على وجهي، حتى إن موظف الاستقبال في أحد الفنادق نظر إلي بإشفاق، قائلاً في تردد:

- الواقع أنه توجد حجرة، ولكن..

صحت أقاطعه في لهفة:

- لا يهم.. اعطني إياها.

وكالغريق الذي يتعلق بقشه، رفـضت أن أسـتمع إلـى الرجل، وطلبت منه إعطائي تلك الحجرة فورًا..

وحصلت على الحجرة..

لست ادري في الواقع ما إذا كان من الإنصاف أن أطلـق عليها اسم حجرة أم لا؛ فهي مجرد شريحة صغيرة، تحـوي فراشا يحتلها بالكامل، حتى إنك تفتح بابها، ثم تقفـز فوقـه مباشرة.. وفوق ذلك الفراش، يوجد حوض (وهـذا جعلنـي أتساءل عن الطبيعة الحقيقية لتلك الحجرة، وعمـا يمكـن أن أجده، لو نظرت تحت الفراش)..

وعندما رقدت على الفراش، الذي هو في الوقـت ذاتـه مساحة الحجرة كلها، كان الحوض فوق رأسي مباشرة..

ولكنني، وعلى الرغم من هذا، قلت لنفسي:

- ليلة وتمر..

إلا أنها أبت أن تمر..

فكوع الحوض مثقوب، والنافـذة الـصغيرة بـلا قفـل، و...و...

المهم أن الليلة كانت أطول ليلة في التـاريخ، ولـم تكـد الشمس تشرق، حتى كنت الملم أشـيائي، وأغـادر الفنـدق، وأعدو نحو موقف سيارات (أبو دياب شرق)، حاملاً لافتـات بيضاء، كتب عليها بكل حماس: <<نمـوت نمـوت وتحيـا (الويكة).. والملوخية>>..

وعندما وصلت إلى القرية، فكرت جـديًا فـي الانحنـاء وتقبيـل ترابها، لولا ما لمحته فوق ذلـك التـراب مـن مخلفات حيوانات القرية الأعزاء، مما جعلني أصرف النظـر عن الفكرة كلها، وأكتفي بتقبيل يدي وجهًـا لظهـر، علـى عودتي سالمًا..

ولكن القدر كان يدخر لي مفاجأة..

سارة للغايـة..

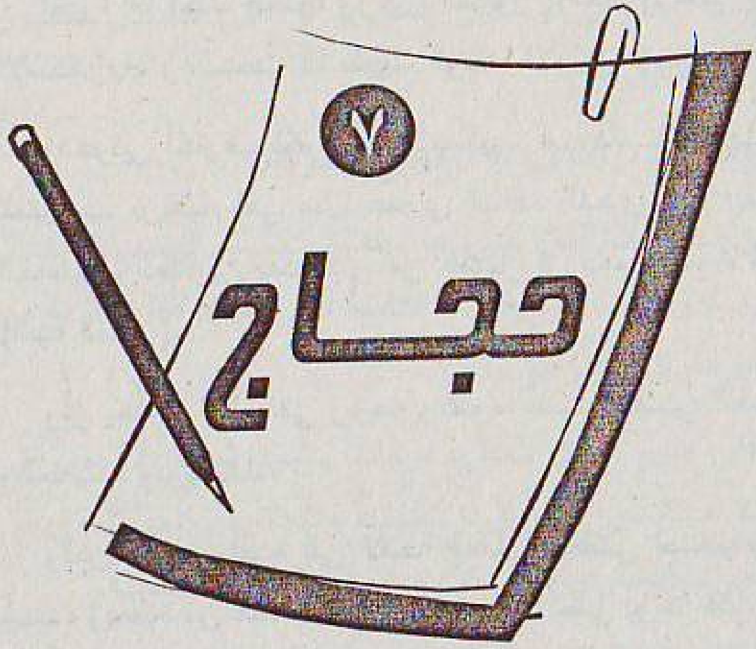
لقد أنهى الدكتور (محمد) مدة تكليفه، وقرر العودة إلـى (الإسكندرية)..

وكان هذا يعني أن الجحيم سيغلق أبوابه أخيرًا..

وأن الوقت قد حان لبدء عهد جديد..

عهد تنتقل إليّ فيه السلطة، وأصبح الطبيب الوحيـد فـي القريــة..

ويا له من عهد!!



٧) حجـــــاج..

أخيرًا انزاحت الغمة، ورحل الدكتور (محمد)، عائدا إلى الإسكندرية، وأصبحت أنا طبيب الوحدة الأول.. ومديرها..

ودعوني أعترف لكم (دون تعـذيب أو إهانـات)، بـأن للمناصب بريقها، ففي مثل عمري آنذاك، الـذي لـم يبلـغ الخامسة والعشرين بعد، كان من المبهر أن يحمل المرء لقب (البيه المدير)..

وأن يعامله الكل، في روحه وغدوه، بنـاء علـى اللقـب والمنصب وبريقهما..

ولكن نظرة واحدة إلى لائحة العمل، جعلتني أصاب بهلع شديد، وبعقدة من كلمة المدير هذه. وربما حتى يومنا هذا..

فطبقا لموقعي، ونظرًا لأنني الطبيب الوحيد، فـي دائـرة نصف قطرها سبعة جبال ونصف، كنت أتولى رسميًا منصب مدير الوحدة الصحية، ومدير الطب الوقائي، ومدير المعامل، ومدير الصيدلية، ومدير مكتب الصحة، ومدير قسم الطـب

الشرعي، ومـدير المخـازن، ومـدير المبيعـات، ومـدير المشتريات، و....، و....

ويسعدني هنـا أن أتقـدم بالـشكر لـوزارة الـصحة (العبقرية)؛ لأنها كانت رحيمة بنا للغاية، فلم تفـرض علينـا منصب الحانوتي أو مدير التموين، أو حتى حامـل الكـوز (شوف الذوق)!

ومنذ اليوم الأول، بدأ (حجاج) تحركاته..

وحجاج هذا لمن نسى هو جلالة كاتـب الوحـدة، بكـل جبروته وهيمنته، وسيطرته الكاملة على عقول أهل القرية من صغيرهم إلى كبيرهم..

ففي اليوم الأول للعمل، فوجئت بالسيد (حجاج) يحمل إلى كومة هائلة من الأوراق والملفات والدفاتر، وكلها تحتاج إلى توقيعي، باعتباري مدير كل شيء في الوحدة الصحية..

وكان الموقـف مثيرًا للشك بالتأكيد، وخاصة لو أخبرتكم ببعض أساليب التحايل، التي يميل إليها (حجـاج) ويهواهـا، ويعتبـرها جزءًا من تكوينه وشخصيتـه، وهوايـة لا تلـذ الحياة بدونها..

لذا فقد رفضت تمامًا التوقيع على أية ورقة قبل أن أقرأها وأدرسها جيدًا، وأعلم السبب الذي منـع صـديقي وزميلـي الحبيب العزيز السابق، بكل سخائه وكرمه الحـاتمي، مـن التوقيع عليها في حياته.. احم.. أقـصد فـي أيام احتلالـه للمنصب..

ولم يرق هذا للسيد (حجاج) بالطبع مما يجعله يقضى اليوم كله، في محاولة لإقناعي بالتوقيع على كل الأوراق، مع وعد منه بشرح مضمونها فيما بعد، وهو يحـضر لـي العـيش والحلاوة في سجن (قنا) العمومي، عندما يصبح هناك الكثير من وقت الفراغ، إثر الانتهاء من الهواية اليوميـة لتكـسير الأحجار في الجبل..

وكان على أحدنا أن ينهار ويعترف، ويستـسلم للآخـر، ويقبل بوجهة نظره.. ولو أنكم تعاملتم يومًا مـع (حجـاج)؛ لأدركتم أنه من الممتع أن يتسلى المرء بتكـسير الأحجـار، على أن يضطر للاستماع إلى إلحاحـه المـستمر، الـذي لا يتوقف لحظه (باستثناء ساعات النوم، والـ...احم)..

ولكن العجيب أننـي احتملـت، وواصـلت إصـراري، وامتنعت عن الشراب والطعام والـ.. حتى انهار (حجـاج) واعترف بأنها أول مرة يخسر فيها حرب الغلاسة هذه..

وأخذت الأوراق كلها لمراجعتها، ورفضت إعادتها للبـك الكاتب، الذي أصر على استعادتها، ما دمت أرفض التوقيـع عليها.. وكانت ليلة ليلاء..

وعندما أشرق الصباح، أدركت بكل أسف، أنني قد ظلمت المسكين (حجاج)..

إنه لم يكن نصابًا محتالاً كما تصورت..

بل كان شيخ منصر (والمنصر هو العصابة الكبيرة)..

فكل ورقة قدمها لي، كانت تحوي تحايلاً، أو تزييفـًا، أو بيانات خاطئـة، أو (وهذا هو الأرجـح) قرارًا باستقالتـي، أو اعترافًا بقتـل (مارلين مونرو)، و(جون كنيدي)، وحتـى خط الصعيد..

وفي اليوم التالي، واجهته بكل هذا، وأنا أنتظـر منـه أن ينهار مرة أخرى، ويعترف اعترافًا تفصيليًا، ولكنني فوجئت به يهز رأسه في لا مبالاة، ويؤكد في بساطة أنه لم ينتبه إلى هذه الأخطاء البسيطة غير المقصودة، ثم أمسك الأوراق كلها، ومزقها، وعاد إلى مكتبه، وكأن شيئًا لم يكن، وبراءة الذئاب في عينيـه..

وهذا ما كان من أمر السيد (حجاج)..

أما أهل القرية، فقد راحت شهامتهم وأخلاقياتهم الطيبة تظهر، فور رحيل الدكتور (محمد)، واحتلالي منصبه، ففي كل مجلس، كانت الشتائم تنهال عليه من كل صوب، ولا حديث للكل عن نذالته، وطمعه، وبخله..

ووجدت نفسي أنكمش في مقعدي صامتًا، وأتابع أحاديثهم في ذعر..

صحيح أنني أتفق معهم في تلك الصفات الحسنة، التي أضفوها على الزميل العزيز، إلا أن أسلوبهم هذا جعلني أفقد الثقة بهم وبمشاعرهم، خاصة وأن معظمهم كان كثير الثناء والمديح للدكتور (محمد)، أيام عمله في البلاد..

بل وكان أكثر المتحمسين لسبه ولعن أيامه، هو الشخص نفسه، الذي قدمه لي الدكتور (محمد)، باعتباره أفضل وأقرب أصدقائه في (أبو دياب شرق) كلها..

وفي خيالي، رحت أتصور نفس المجلس، وقد تم استبدالي فيه بالطبيب الذي سيأتي من بعدي، والكل يصفني بالنذالة والطمع والبخل، ويلعن أيام عملي السوداء..

ومن هنا، اتخذت قرارًا بعدم السماح بالإساءة إلى سلفي قط، والتصدي لهذا بكل الحزم والذوق والإصرار، حتى

يدرك الكل أنها ليست الوسيلة المثلى للتقرب إليّ، أو كسب ودي وصداقتي..

والواقع أنه كان لدي سبب آخر خفي وخبيث، لمنع الحديث عن الدكتور (محمد)، إذ أن مجرد ذكر اسمه كان يعيد إلى أذهاني ذكريات جميلة وممتعة، تكفي لأن تهاجمني كل كوابيس الدنيا، عندما يأتي المساء..

وللسبب نفسه، دعونا نتوقف عن الحديث هنا.. وهناك، وفي أي مكان من العالم الحر، وغير الحر، والمحلي والمستورد، وحتى عالم المرأة..

المهم أنني قد أصبحت مدير الـ.. والـ.. والـ..، وصرت المسئول عن كل شيء في القرية، وكل الزمام التابع لها..

وكان هذا يضيف إلى عبئًا جديدًا، إذ أنني، في أيام العز، كنت أعمل لنصف الشهر فقط (على نحو غير رسمي)، ويتولى زميلي النصف الآخر، أما الآن، وبعد أن صرت وحيدًا منفردًا، كان من الطبيعي أن أعمل طوال الوقت، وأن أضطر لأكل (الويكة) والملوخية طوال الشهر، باستثناء ستة أيام كل شهرين، وهى كل الإجازة المتاحة لبؤساء الطب

أمثالي، وخاصة أولئك الذين يقيمون ويعملون في منتجعات جبلية فاخرة، مثل (أبو دياب ريزورت)..

وفى بطء وحذر، رحت أستكشف حدود منصبي.. أحم.. أقصد مناصبي الجديدة، وأراجع ما درسناه عن الإجراءات والإداريات، ما دمت سأقضى فترة طويلة بصحبة الرجل الذئب.. أعنى السيد (حجاج)، الذي يحفظ كل هذا، بحكم خبراته الطويلة، التي تزيد على خمسة عشر عامًا، معظمها في الوحدة نفسها..

ومع مرور الوقت، أدرك الذئب هذا، ولأنه يهوى اللعبة ويعشقها، فقد راق له ما أفعله، وانتعش لإصراري على القتال، وراح يسن أنيابه، ويبرز مخالبه، استعدادًا للجولة الأولى، باعتباري، مهما فعلت، مجرد تلميذ في مدرسة الذئاب الإبتدائية المشتركة، التي يعتبر نفسه ناظرها ومديرها، ووزير التربية والاحتيال فيها أيضًا..

وكوسيلة لإثبات تفوقه وبراعته، أبدى استيائه ذات يوم من الثلاجة القديمة في مسكنه، وأخذ يقنعني بطلب أخرى جديدة، من الإدارة الصحية، باعتبار أن هذا حقي كطبيب مقيم، وراح لثلاثة أيام متوالية يتغزل في الثلاجات الجديدة، التي وصلت إلى مديريات الشئون الصحية بالمحافظة، والتي

تعمل بالكهرباء، والغاز، والبطارية، وحتى بالفحم، لو اقتضى الأمر.

وصدقته أنا (توقف عن الضحك.. أرجوك)..

وبكل الحماس، أرسلت طلبًا رسميًا للإدارة الصحية، لتزويدنا بثلاجة جديدة، وحمل (حجاج) الطلب بحماس أكثر إلى (قنا)، وعاد ليؤكد لي أن كل شيء تمام، وأنه قد عاين الثلاجة الجديدة بنفسه، ووجدها رائعة، وأنه يمكننا أن نصنع بواسطتها كل ما لذ وطاب، من الأيس كريم، بكل أنواعه المعروفة في الصعيد.. الذرة، والبطاطا، والطين..

وانتظرت في شغف وصول الثلاجة الجديدة..

وانتظرت.. وانتظرت..

وأخيرًا، وبعد أن فاض بي الكيل، سألت (حجاج) بك عن الثلاجة الجديدة، التي تعمل بوسائل متعددة، خاصة، وأن الثلاجة القديمة قد صارت تعمل أيضًا بوسائل متعددة، في الآونة الأخيرة، فهي تعمل بصعوبة، وبالعافية، وبدعاء الوالدين..

وهنا رأيت ابتسامة الذئب، التي يتحدثون عنها في الروايات.. ابتسامة كبيرة، واسعة، ظافرة، شامتة..

وفى هدوء، هبط (حجاج) إلى مكتبة، وعاد حاملاً دفتر المخازن الضخم، وقدمه لي، قائلا في حزم:

– قم بعمل جرد للمخازن، واتهمني بالاختلاس..

لم أفهم ما يقصده بالضبط، فسألته في حيرة وحذر:

– أفعل ماذا؟!

هز كتفيه، الذين يستند إليهما رأسه، وهو يقول بابتسامة كبيرة:

– أنت مدير المخازن، وأنا أمين المخازن، وقد تسلمت الثلاجة الجديدة بالفعل، ونقلتها فورًا إلى منزلي بالأقصر، والمطلوب منك، حتى تحمى نفسك وتخلى مسئوليتك، أن تقوم بعمل جرد مفاجئ للمخازن، وتتهمني رسميا باختلاس الثلاجة الجديدة..

ومما يثبت أنني كنت مجرد ذئب في (**K.G.1**)، في مدرسة (حجاج) بك، هو أنني قد حدقت في وجهه بدهشة كبيرة، وأنا أهتف:

– ولماذا يا حجاج؟! أعد الثلاجة، وسنتجاهل كل هذا.

فوجئت به يهتف بسخرية ذئبية:

– أعيدها؟!

ثم راح يقهقه، ويقهقه، ويقهقه، حتى تصورت أنني مهراجا هندي، لا ينقصني سوى الفيل الأبيض، الذي يستبدلون به في الصعيد العجل الأبيض (لظروف بيئية خاصة)، قبل أن يقول بكل سخرية الذئاب:

– أنها ثلاجة رائعة، لا مثيل لها في الأسواق، وثمنها، من الناحية الرسمية، لا يزيد عن الألف جنيه، وهذا يعنى أنه طبقًا للقانون لابد أن يقتصر الأمر اختلاسا على جزاء إداري، مع خصم الراتب من راتبي، والقانون لا يمنح الحكومة الحق في خصم ما يزيد عن ربع المرتب، مهما بلغت كمية الخصومات، وهذا يعني أنني قد حصلت على ثلاجة فريدة، بدون مقدم، وبقسط شهري يساوى صفر، لأن ربع مرتبي يتم خصمه بالفعل، بسبب أمور سابقة، وأنا أعتبره نفقة حكومية، تأخذه من راتبي، وأخذ أنا في المقابل كل ما يحلو لي من مخازنها.

قلت ذاهلاً:

– وماذا عن الجزء الإداري؟!

مال نحوى، قائلا بلهجة مشفقة، وبأسلوب أستاذ كبير، يلقن تلميذه الصغير درسًا جديدًا:

- وماذا عنه؟! أنا مجرد كاتب وحدة صحية، في قلب الجبل.. ما الذي يمكن أن يفعلوه بي، أسوء من هذا؟!

وتعلمت الدرس الأول، على يد (حجاج)..

فبدون عقاب رادع، لا يمكنك أن تمنع ارتكاب الجرم أبدًا، وأن أكثر ما يغرى بمخالفة القانون، هو القانون نفسه، ولو أنه لا يعاقب الخطأ على نحو كاف ومناسب..

درس ممتاز، من ذئب مفترس..

ولكنه لم يكن أفضل درس تعلمته، على يد (حجاج)، ولا آخر درس..

فطوال اثني عشر شهرًا، عشتها كمدير للوحدة الصحية في (أبو دياب شرق)، تلقيت من صراعي مع (حجاج) عشرات الدروس، التي أفادتني طوال عمري، في حياتي وعملي..

ولعل أهم هذه الدروس هو ذلك الدرس، الذي تلقيته ذات ليلة، بسبب كلب..

نعم.. كلب..

فالوحدة الصحية، التي أعمل بها، كانت بخلاف كل الوحدات الأخرى، مفتوحة على العالم الخارجي، من قبل حتى أن يسمع العالم بالعولمة، ولكن انفتاحها هذا كان لسبب مختلف تمامًا، فقد كانت وحدة بلا سور يحيط بها..

ولأنها كذلك، كنا ننعم طوال الوقت بصحبة كل أنواع الحيوانات المعروفة (وأحيانا غير المعروفة)، وعلى رأسها طبعًا الكلاب والحمير، وعجل البوهي.. وللأخير قصة عجيبة، سأقصها عليكم فيما بعد..

المهم أنه من بين ضيوفنا الحيوانات، كان هناك كلب نحيل أجرب يكرهه السيد (حجاج) بشدة، دون أي سبب واضح أو مفهوم، ويبغض وجوده بغضًا لا مثيل له، كما لو أنه كان ينازعه الرضاعة في طفولته..

وذات ليلة، بينما كنت أجلس في حديقة الوحدة (وحديقة الوحدة هنا لفظ مجازى تمامًا، إلا لو اعتبرنا النباتات العشوائية والشوكية زهورًا يانعة)، فوجئت بالأخ (حجاج) يحضر الكثير من الطعام والشراب لذلك الكلب النحيل، ويطرد الكلاب الأخرى، حتى لا تشاركه طعامه، ويحميه منها طوال الوقت..

ولأنني فقط كنت قد انتقلت إلى (**K.G.2**) فقد ابتسمت في ارتياح، وسألته:

- هل أنبك ضميرك على كراهيتك السابقة لهذا الكلب المسكين؟!

ابتسم في سخرية وهو يجيب:

- بل أنني أبغضه أكثر من ذي قبل ألف مرة..

سألته بدهشة:

- ولكنك تختصه بالطعام والشراب، وتحميه من الكلاب الأخرى..

ضحك ضحكته الذئبية الشيطانية، وكأنما يسعده أنني لم أفهم، قبل أن يقول بلهجة أخافتني:

- أنني أفعل هذا، حتى تكرهه الكلاب الأخرى، مثلما أكرهه أنا، بحيث تهاجمه وتوسعه ضربًا، فور خروجه من هنا، وهكذا ينعزل وينزوي، ولا يجد الراحة في أي مكان بالأرض..

والواقع أن جوابه هذا قد أصابني بالذعر والهلع..

ألهذا الحد تبلغ طاقة الشر، في نفس أي مخلوق؟!

أيمكن أن يبلغ البغض والكراهية هذا المقدار، دون مبرر أو سبب معقول؟!

ولكنني وعيت الدرس..

لا تسع قط للتميز عن الآخرين، دون كفاءة حقيقية، وإلا لنلت كل غضبهم وبغضهم وكراهيتهم..

وإذا ما أردت أن تبث الكراهية والبغضاء في نفوس الناس، تجاه شخص بعينه، فيكفى أن تقربه إليك، وتختصه بما تمنعه عنهم، وتمنحه امتيازات فائقة دون مبرر..

وبعدها أتركه لهم..

ترى هل استوعبت الدرس بدورك؟!

في الاتجاهين؟!

العجيب، وعلى الرغم من كل هذا، أن علاقتي بـ (حجاج) لم تكن سيئة، كما قد يتصور البعض..

لقد كانت أشبه بالحرب الباردة..

فمع كوننا الوحيدين اللذين يعيشان في المكان، باستثناء الشغالتين (فهيمة) و(رقية)، كان من الطبيعي أن تقضى معظم وقتنا معًا.. نتحدث، ونتسامر، ونتبادل الخواطر والأفكار..

وباستثناء أوقات التحايل والخدع، كان (حجاج) صعيديًا شهمًا، كريمًا، يوليني اهتمامًا كبيرًا، ويقلقه أمر راحتي وطعامي وشرابي، حتى أنني تصورت أن روح الذئب الرضيع في أعماقي قد راقت له، وقرر أن يتبناني، وأن يمنحني كل خبراته الذئبية، من الحضانة إلى الجامعة..

والحديث عن (حجاج) هذا يحتاج إلى كتاب كامل، إذا كانت شخصيته مركبة معقدة، يمتزج فيها الذئب بالحمل، فلا يمكنك أن تبين أحدهما من الآخر، في معظم الأحيان..

وهو في معظم الأحيان يسعى لتحقيق أكبر ربح ممكن، دون أن يسبب سوى أدنى الخسائر للآخرين (فيما عدا الخسائر المادية بالطبع)..

ومن أطرف ما كان يفعله (حجاج)، عمليات شهادات التسنين..

ففي تلك الفترة، من بداية الثمانينات، كانت لعبة السفر إلى بلدان البترول في أوجها، وكل شخص في (مصر) يسعى للسفر، حتى وإن حصل على عمل تافه وبسيط للغاية..

وفى الصعيد، كان كل مخلوق يحلم بوظيفة عامل أجري، في سلة النفط، وحتى يمكنه تحقيق ذلك الحلم العظيم، كان من الضروري أن يسافر..

ولقد فوجئ كل صعيدي بأن السفر يستلزم إجراء متعنتا، لم يستوعب أبدًا إصرار الدولة عليه..

أن يمتلك جواز سفر..

ومشكلة جواز السفر هي أنه يحتاج في البداية إلى بطاقة شخصية..

والبطاقة الشخصية تحتاج إلى شهادة ميلاد..

وشهادة الميلاد عند النجار، والنجار يريد منشار، والمنشار.. معذرة.. أقصد - باختصار - أنه لم يكن هناك أحد من الكبار يمتلك شهادة ميلاد رسمية، في الصعيد كله..

لذا كان من الضروري أن يستخرج كل من يرغب في السفر، شهادة تسنين، لتحديد عمره الافتراضي، واستخراج شهادة ميلاد، بناء على ذلك العمر الافتراضي، مما يفسح الطريق أمام استخراج بطاقة شخصية، وجواز سفر، وتذكرة طائرة إلى بلاد النفط..

وكانت فرصة ذهبية للأخ (حجاج)، الذي أوهم الكل أن استخراج شهادة التسنين هذا يحتاج - من الناحية الرسمية - إلى عامين كاملين، وأشاع هذه المعلومة المخيفة في القرية

كلها، ثم أضاف إليها معلومة خفية، تقول: أنه من الممكن اختصار هذه الفترة إلى ستة أشهر، مقابل رشوة مقدارها مائتا جنيه..

ولأن الكل يجهل كل شيء عن حقيقة الأمر، فقد تهافت الكل على الشيخ (حجاج)، وكل منهم يدفع الرشوة المطلوبة، لاستخراج شهادة التسنين، في ستة أشهر فحسب..

المدهش والمضحك في هذا الأمر، هو أن الحد الأقصى - رسميًا - لاستخراج شهادة التسنين هذه، كان ستة أشهر بالتمام والكمال..

وهذا يعنى أن الأخ (حجاج) كان يتقاضى مبالغ الرشوة ويدسها في جيبه، ثم يترك الأوراق لتأخذ مجراها ودورها الرسمي، دون أن يبذل أدنى جهد..

وعلى الجانب الأخر من شخصيته، فوجئنا ذات يوم بالشرطة تجرى تحريات سرية مكثفة في القرية، ولأنها سرية جدًا، فقد عرفنا أن وريث أحد أبناء أبو دياب شرق، والذي يقيم منذ سنوات طوال في القاهرة، قد استخرج شهادة وفاة عمه، واتهم أبناء عمه بتزويرها، باعتبار أن العم قد توفى منذ سنوات طوال، وليس منذ عامين فحسب، كما تقول الشهادة

المزورة، ثم دلل هذا بأن شهادة وفاة أخرى للعم، مستخرجة، من سجل مدني (البدرشين)، منذ عشرة أعوام..

ومع معرفة الخبر، بدأ (حجاج) متوترًا وعصبيًا، حتى أنني سألته عما إذا كان هو الذي استخرج شهادة الوفاة المزورة، فاعترف لي بصحة ظنوني، ولكنه أكد أنه لا يحمل أية مسئولية قانونية، حيث أن الدكتور (أحمد)، طبيب الوحدة في ذلك الحين، يعد - من الناحية القانونية - المسئول رقم واحد، لأنه من المفترض أنه قد فحص الجثة، وحدد سبب الوفاة، قبل أن يضع توقيعه على الشهادة..

ولمن لا يعلم، فهذا لا يحدث في معظم قرى الصعيد، أو لم يكن يحدث، أيام كنت أنا هناك..

فالناس في قرى الصعيد لا تعترف كثيرًا بالرسميات، لذا فما إن يتوفى أحدهم، حتى يقوموا بدفنه، ويقيموا العزاء (لو لم يكن ضحية عملية ثأر)، ثم يأتون بعد أسبوع أو أسبوعين لاستخراج شهادة الوفاة، وكأنها بطاقة تموين أو شهادة تموين، يمكن استخراجها في أي وقت..

ولأنه من المستحيل أن تغير العادات الموروثة، وخصوصا في منطقة شديدة التحضر كهذه، كان لابد أن

يتكيف الأطباء مع هذه العادة الغير طبيعية، لذا فكلنا هناك نعتمد على التحريات، بدلاً من الكشف الطبي، فنسأل ونتقصى، حتى نعرف أسباب الوفاة المفترضة، ثم نستخرج الشهادة بعدها..

وهذا بالطبع إجراء غير قانوني، وحتى غير منطقي، ويفتح الباب على مصراعيه للخداع، والتمويه، وحتى للجريمة والقتل، ولكن الكل مضطر للسير في هذا الأمر، حتى يمكن تغيير عقول الأخوة الصعايدة، أبناء قرى الوجه القبلي..

ولهذا السبب، تورط الطبيب السابق الدكتور أحمد، الذي لم ألتق به قط، في شهادة الوفاة المزورة هذه، وصار من المحتمل أن يتورط في جناية تزوير محرر وفاة أيضًا، وهي تهمة كفيلة بتدمير مستقبله تمامًا..

لولا أن أختفى (حجاج) فجأة..

واختفى لثمان وأربعون ساعة فحسب، ثم عاد مبتسمًا، متوردًا، رافع الرأس (بمعنى أن درجة ميل رأسه على كتفه أصبحت أقل)، وحضر إلى مسكني، قائلا في ظفر:

– المشكلة انتهت..

سألته في دهشة ولهفة:

– كيف؟!

فوجئت به يناولني الورقة الأصلية، التي تحمل بيانات شهادة الوفاة، من مكتب صحة البدرشين، وهو يجيب في زهو:

– لقد التقيت بكاتب صحة البدرشين، وأفهمته أننا زميلان، فمزق الورقة من الدفتر الرئيسي، وأعطاني إياها، وهكذا لن تجد الشرطة دليلاً رسميًا واحدًا، يثبت أن الرجل قد مات في البدرشين بالفعل..

لقد أدهشني هذا حينذاك..

وأفزعني..

ألهذا الحد بلغ الاستهتار والفساد والإهمال، في مكاتبنا الحكومية الرسمية؟!

ألهذا الحد بلغت الخسة والضعة؟!

ولكن هذا أيضًا كان درسًا جديدًا..

فالذئاب كلها تتآزر وتتعاون، إذا ما فاحت رائحة الخطر..

على عكس الحملان.. ما أن يظهر الذئب بينهم، حتى تتدافع منفردة في كل صوب، ولا هم للواحد منها سوى أن يفر بجلده وينجو بحياته..

وكما سبق أن أخبرتكم من قبل، كان (حجاج) هذا ذئبًا وحملاً في آن واحد..

ولوصفه بالحمل هذا حكاية واحدة، لا يمكنني أن أتمالك نفسي من الضحك، كلما تذكرتها، أو جالت بخاطري..

فذات ليلة، وفى أثناء إحدى فترات التوتر وحرب الثأر، بين العرب والهواره، خرجت مع (حجاج) لزيارة أحد أصدقائي من العرب، وكان هذا يحتم أن نقطع - سيرًا على الأقدام - أحد النجوع التابعة للهواره..

وكنا نحفظ القواعد، الخاصة بتلك الفترات الحربية..

لابد أن نرتدي القمصان والسراويل، لنثبت أننا غرباء على القرية، وأن نسير في منتصف الشارع بالضبط، وألا ننحرف يمينًا أو يسارًا..

ولقد فعلنا هذا في طريق الذهاب، حتى يرانا القناصة، المختبئون فوق أسطح المنازل، وسط الحطب وعيدان القصب، لحماية ورصد أية محاولة للهجوم..

وكانت ليلة لطيفة جدًا، قضيناها في منزل صديقي العربي (فتحي)، وتعالت خلالها ضحكاتنا، وعلى الرغم من حالة التوتر التي تسود القرية..

ثم حانت لحظة العودة..

ولأن السهرة كانت ممتعة، فقد نسى الأخ (حجاج) القواعد، وانحرف إلى شجرة على جانب الطريق، ليقضي حاجته..

وهنا فوجئنا بانطلاق رصاصات مدفع آلي، تشق سكون الليل، وتضرب الأرض، على مسافة متر واحد منا..

وبكل رعبه وذعره، صرخ (حجاج)، وهو يخرج من خلف الشجرة، رافعا ذراعية لأعلى، ومتقافزًا على نحو مضحك:

- أنا (حجاج).. أنا (حجاج)..

توقف إطلاق النيران على الفور، وسارت صمت رهيب، دون أن يعلن أحد عن وجوده، أو يعتذر، أو حتى يفتح أي شخص باب أو نافذة منزله..

وبخطوات سريعة، رحنا نبتعد أنا و(حجاج) عن منطقة الخطر، في اتجاه الوحدة التي لاحت من بعيد..

ولأنني كنت أعلم أنه يحتاج بشدة إلى قضاء حاجته، فمـــا إن تجاوزنا دائرة النجع، حتى قلت له:

– لقد خرجنا من نجع الهـــــواره.. يمكنـــك أن تقـضـي حاجتك الآن.

انعقد حاجباه، وغمغم في عصبية:

– فيما بعد.. فيما بعد..

استوقفته قائلا:

– ولماذا فيما بعد؟!.. هذا المكان مناسب..

زمجر في عصبية أكثر، وهو يقول:

– لم تعد هناك ضرورة..

عندئذ لاحظت ذلك البلل في سرواله، وأدركت أنه لم يعد بحاجة إلى قضاء حاجته بالفعل، وأن الحمل في شخصيته قد برز، بعد أن غرق الذئب..

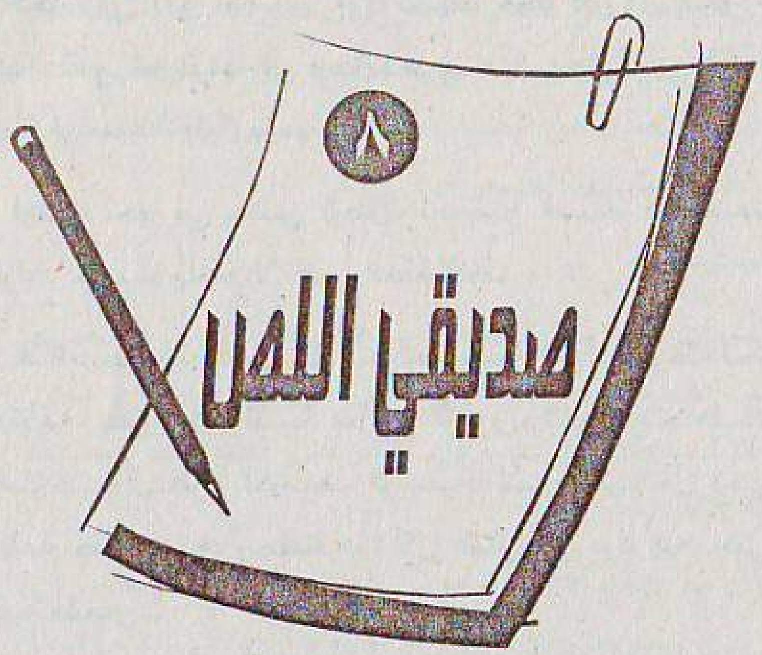
غرق في شبر من الماء..

أو من الـــ..

وربما كان هذا الحادث أكبر الأثر، في أن أفقـــد نـــصف مخاوفي وقلقي تجاه أستاذ الذئاب وذئب الأساتذة (حجـــاج)، وأنا استثمر ذهني في أمور أخرى فـــي الوحـــدة الـــصحية، خاصة وأن سلفي قد ترك خلفه عشرات الأمور المعلقة، التي تحتاج إلى الحسم والبت..

وكان هذا يعنى أن أبدأ حربًا جديدة وعنيفة..

حرب إثبات الذات..


٨
صديقي اللص

٨) صديقـــي اللـــص..

الحياة في (أبو دياب شرق)، تختلف حتمًا عن كل أنـواع الحياة، التي تعرفونها في وجه بحري.. بل وحتى عن طبيعة الحياة في مدينة (قنا) نفسها..

فعندما تحيا في حضن الجبل، تـصبح هنـاك أبجـديات وقواعد جديدة، ونظم لا تنتمي لعالم النظم..

هناك، ساعات العمل لا تـرتبط بمـا قدرتـه وحددتـه الحكومة، بقدر ما ترتبـط بمزاج الزبون، الـذي يتجاهلـك تمامًا، طـوال فترة الكشـف الرسمية، لأنـه منـشغل فـي زراعة حقله وريه، وحصاده، وأكل المش أبو دود فيه، حتى تغيب الشمس..

ومع مغيبها، يعود إلى منزله العامر، ليـشمر سـاعديه، وينقض على طعامه كالغيلان، دون أن يفكر في التوقف، قبل أن تعلن معدته نفسها الاستسلام (بغض النظر عـن طبيعـة الطعام نفسه)، وتئن وتتوجع، وتنتفخ بكرش مؤقت..

وهنا يحين موعد النوم والراحة، وأكواب الشاي الأسـود، الذي يقدم بنفسه شكوى باكية، لوزارة التمـوين، والداخليـة، ولجان حقوق الإنسان، اعتراضًا على غليه للمرة العاشـرة، خلال أسبوع واحد، وفى الوعاء نفسه..

وفى العاشرة، أو الحادية عشرة، أو حتى بعـد منتـصف الليل، يتذكر فجأة، بلمحة عبقرية مباغتة، أن أبنـه مـصاب بنزلة شعبية حادة، من الصيف الماضي، وأن الوقت قد حان، لحمله لطبيب الوحدة الصحية..

المسكيــن..

والمسكين هنا هو أنا طبعًا، عندما استيقظ فـي الواحـدة والنصف صباحًا، للكشف على طفل مريض، يتصور، مـن طول فترة مرضه، أن هذه هي الأعراض الطبيعيـة للحيـاة البشرية التقليدية..

وأول ما ينبغي أن تتعلمه، في أعماق الـصعيد، هـو أن الاعتراض ممنوع، والزعل مرفوع، والرزق على الله، وأيـا كان الموعد، الذي يأتي فيه المـريض، عليـك أن تـستقبله بابتسامة كبيرة، وهدوء شديد، وأنت تزيل (العمـاص) مـن عينيك، وتتثاءب، وتحاول توقيع الكشف عليـه بكـوز ذرة، متصورًا (في الحلم طبعًا) أنك أبرع طبيب، في العالم كله..

والأكثر مدعاة لسرورك، هو أن والد الطفـل المســكين سيعود إلى منزله، حاملاً طفله، والتذكـــرة الطبية التي كتبتها أنت له، ليلقيهمـــا معًا في أي ركن، وينس الأمـــــر تمامًـــا بعدها، باعتبار أن الشفاء من الله (عز وجــل)، ولـــيس مـــن الطب والدواء..

أما أنت، فعليك أن تنسى تمامًا تلك المقولة الحمقاء، التي تشير إلى احتياج كل آدمي لفترة متصلة من النوم، تبلغ ست ساعات في المتوسط، لأنك لن تحظى قــط بتلــك الســاعات الست، أو بأي عدد من الساعات المتصلة، في موضوع النوم هذا؛ لأن أي شخص سيأتي من أجل الكشف الطبي، فـــي أي وقت، وأي زمان..

وخاصة عندما يتعلق الأمر بالكشف على امرأة صــعيدية هوارية..

بل أن الليل سيرتبط في ذهنك بالعمــل، ولـــيس بــالنوم والراحة، كما هو في واقعه..

ولقد كان هذا يستفزني بشدة في البداية، وكنت ابذل جهدًا زائدًا، لشرح الأمر لكل زائر ليلي، وإقناعه بأن وجودي الدائم في المكان، لا يعني إنني اختلف عن أي بشري، في احتياجه للنوم والراحة، و..

وفوجئت بأن هذه النكتة السخيفة، تضحكهم بشدة، فكل من أخبره بالأمر ينفجر ضحكًا، ويقهقه، حتى تصورت أنني أكثر وسامة من (إسماعيل ياسين)، ولدي خفة ظل تنافس (حــسن البارودي)، وروح مرحة تفوق (أمينة رزق)..

وذات مرة، وبعد أن استفزتني ردود الأفعال هذه، ســألت أحد كبار الهوارة عما يضحك الناس، عندما أقول أنني بحاجه للنوم والراحة، وفوجئت بالرجل يقهقه ضاحكًا بدوره، حتـــى يكاد يستلقي على قفاه، كما تقول روايات ألف ليلة وليلة، إلى الحد الذي كاد يقنعني بتسجيل هذه النكتة، والحــصول علـــى حق أداء علني عنها، لولا أن فاجئني هو بالجواب:

- ولماذا تحتاج إلى النوم والراحة يا دكتور؟!

إنك تقيم في الوحدة الصحية طوال الوقت.. هل تقــضي يومك في الزرع والحرث مثل الآخرين..؟!

وعندئذ فقط أدركت المعنى..

الناس تضحك؛ لأن عبقريتهم أنبأتهم بأنه مادمت لا أعمل في الزرع والحــرث والحصـــاد فلماذا أحتـــاج إلى راحة.. أو حتى النوم من الأساس..

وهم معذورون بالتأكيد في وجهة نظرهم هذه، فباستثنائي وحدي، يتحرك كل من حولهم، وما حولهم، بمنتهى النشاط من مطلع الشمس، وحتى مغربها..

هم، وزوجاتهم، وأبنائهم، وبناتهم، وبهائمهم، وحميرهم، وحتى فئرانهم..

ومن وجهة نظرهم العبقرية هذه، كان الحمار يستحق الراحة في الليل..

أما أنا فلا..

ما علينا.. إنها ليست النظرية العلمية الوحيدة، التي لم تثبت صحتها أبدا..

المهم أنني قد اعتدت، بعد فترة قصيرة، نظرية زائر الليل هذه، وتعايشت معها، وأدمنت الكشف بكوز الذرة..

حتى ظهر (محمود)..

و(محمود) هذا صعيدي أيضًا ولكن في حجم اثنين من الصعايدة، تم دمجهما معًا، وإعادة تشكيلهما مرة أخرى، فهو أطول مني بنصف المتر على الأقل (وأنا لست قزمًا بالطبع)، وعرضه أقرب إلى عرض باب الوحدة، وملامحه أقل وسامة من ملامح مسخ (فرانكنشتاين) بدرجة واحدة فحسب، و...

ثم إنه يحمل على كتفه مدفعًا آليًا، يبدو من ضخامته أشبه بالمدافع المضاد للطائرات..

ولقد التقيت بالأخ (محمود) هذا لأول مرة، في الثالثة صباحًا، من ليلة حارة كاللهيب، ككل ليالي صيف الصعيد، عندما كنت استغرق في نوم عميق، ثم قفزت من فراشي مذعورًا، على صوت قنابل تتفجر على باب الوحدة..

ثم كشفت بعدها أنها لم تكن قنابل، وإنما كانت دقات رقيقة من كف (محمود) على الباب..

المهم أنني هرعت إلى الباب وفتحته، بعد أن طار النوم من عيني، وخيل إلي أن هذه الليلة بالذات شديدة الظلمة ولم يطلع لها قمر، قبل أن انتبه أن جسد (محمود) هو الذي يسد طريقي ويمنع عني ضوء القمر..

وبصوت جميل رقيق، أشبه بصوت عجل مصاب بالتهاب في الحلق، قال الأخ (محمود) وهو يرمقني بنظرة مفترسة لطيفة:

- نريدك يا دكتور..

سألته بكل شجاعة (زائفة طبعًا):

- فيم؟!

زمجر قائلاً :

- أحضر كل أدواتك.. هيا..

ولأن الموقف كله لم يكن يشجع على المناقشة، أو الحوار الديمقراطي، فقد أطعت أوامره، وأحضرت حقيبتي الطبية، وركبت البغل الذي احضره معه، وركب هو بغلته، وانطلق بها، وبغلي يتبعها، وكأنما فقد شخصيته تمامًا، مثل.. وللا بلاش..

وبعد نصف ساعة تقريبًا، والجري وسط الصخور والجبال، وجدت نفسي مع الأخ (محمود)، أمام مجموعة من الأشخاص كلهم بنفس وسامته، يلتفون حول آخر، مصاب برصاصة في فخذه..

وأشار (محمود) بسبابته، التي هي في حجم يدي كلها تقريبًا، وهو يقول بصوته الرقيق:

- هيا.. ابدأ عملك.

ولم يكن الأمر يحتاج إلى الكثير من التفكير أو التردد، لذا فقد فتحت حقيبتي، وأخرجت منها أدواتي، وزجاجة كبيرة من صبغه اليود، و على ضوء كلوب صغير، بدأت عملي.

لم أكن قد قمت بمثل هذا العمل في حياتي قط، ولكن من حسن الحظ أن الرصاصة كانت مستقرة في الفخذ فقط، ولم تخترق العظام، وأنني كنت احمل معي مخدرًا موضعيًا..

المهم أن الأمر قد استغرق مني ساعة واحدة تقريبًا، وضعت بعدها الرصاصة في يد (محمود)، وأعدت قلبي إلى موضعه، واطمأننت إلى أنهم لن يأخذوا ثأر زميلهم من جسدي أنا..

وفى السادسة صباحًا تقريبًا، عدت إلى الوحدة، ودون أن ينطق (محمود) بكلمه واحدة، وضع في يدي رزمه أوراق مالية، ولفافة كبيرة، ثم انصرف على بغلته، وذلك البغل المنعدم الشخصية يتبعها مستسلمًا..

ولربع ساعة تقريبًا، جلست في المسكن صامتًا، لا اصدق ما حدث، وعقلي يدير الأمر على كل الوجوه، ويستعيد كل لحظة منه ألف مرة.. يا له من موقف!

من الواضح إنني قد تورطت مع بعض الخارجين على القانون، أو المطاريد، كما يطلقون عليهم هناك، والذين تطاردهم الشرطة باستمرار، مما يدفعهم إلى استيطان الجبال، والإقامة فيها بصفة دائمة..

وطبقًا للقانون، والمنطق والعقل، كـان ينبغـي أن ابلـغ الشرطة عما حدث..

ولكن طبقًا للقواعد هنـا، كان من الأفـضل أن احـتفظ بالأمر سرًا..

وفى درج المكتب، ألقيت رزمه النقود، واللفافة، دون أن أحاول العد أو الفحص، وألقيت جسدي على الفراش، محاولاً الحصول على ساعة واحدة من النوم، قبـل أن يبـدأ عمـل الوحدة الصحية..

وفى الصباح، أو بمعنى أدق، بعد ساعتين فقط، بدأت في جمع المعلومات عن الأخ (محمود) الوسيم هذا..

المشكلة الوحيدة التي واجهتني عندئذ، هي أنني لم أكـن امتلك مجموعه كافية من الأجولة، لجمع كل ما حصلت عليه من معلومات، فقد كشفت فجأة أنه حتى الأطفال في القريـة يعرفون هذا الـ (محمود)، فهو قاتل قديم، وزعيم عصابة من المطاريد وقطاع الطرق، ومهرب مخدرات (مـا شـاء الله) ومدان في عدد من القضايا، وتنتظره أحكام بالـسجن لقـرن ونصف تقريبًا، مع حكمين بالإعدام، وعلى الرغم من هـذا، فمنزله ما زال قائمًا، وزوجته تواصل إنجاب طفل في السنة على الأقل، منذ هاجر هو إلى الجبل، قبل سبع سنوات..

وهذه الهجرة من الناحية الرسميـة فحسب، ولكن الواقـع انه يقضي معظم أيامه في منزلـه، ومـع زوجتـه وأولاده، ويسير في القرية طـوال الوقت، بمدفعه الآلي الضخم، دون أن يعترضه احد، أو تعلم الشرطة بأمره، باعتبارها آخر من يعلم كالمعتاد..

وبمناسبة الحديث عن الشرطة، لقد ظل ضميري يـؤنبني طويلاً، قبل أن احسم أمري، وأقرر إبلاغ صـديقي ضـابط شرطه المنطقة بما حدث..

وذات يوم، ذهبت إليه في النقطة مباشرة، والتقطت نفـسًا عميقًا، ثم رويت له القصة كلها، قبل أن أقول في اهتمام بالغ، وبلهجة من يلقى سرًا خطيرًا:

- الشيء المؤكد أنهم يختفون في الجبل.

رمقني بنظرة دهشة مستنكرة، وكأنما يهتف في أعماقه:

- (وحياة النبي.. طب ما احنا عارفين)، ثم تراجـع فـي مقعده، وتطلع إلي طويلاً، في إشفاق شديد، قبل أن يعتدل مرة أخرى، قائلاً في حزم:

- هل تريد رأيي الرسمي، أم رأي صديق؟!

أجبته بسرعة:

- رأى الصديق بالطبع.

تنهد قائلاً:

- انس الأمر كله إذن، ولا تفتح على نفسك أبواب جهنم.

ولأن نصيحته صادفت هوى في نفسي كما يقولون، فقد اقتنعت بها على الفور، وقررت نقلها إلى خانه التنفيذ فورًا..

وعند عودتي إلى الوحدة، فتحت درج المكتب، من باب الفضول، لمعرفة ما أعطاني إياه (محمود)..

وكانت مفاجأة حقيقية..

صحيح أنه قد أعطاني مائتي جنيه، وهو ما يفوق إيراد أسبوع كامل، في ذلك الوقت، ولكن هذا لم يكن سبب المفاجأة، وإنما كانت المفاجأة الحقيقية في محتوى تلك اللفافة، التي صاحبت المبلغ، وربما تكون هناك مفاجأة أخرى لكم، إذا ما علمتم أنني لم أتعرف على هذا المحتوى، إلا بعد أن عرضته على (حجاج)..

فقد كانت لفافة تحوى طربة حشيش كاملة، يكفى حجمها لإلقاء القبض على بتهمه الاتجار في المخدرات..

كانت هدية إضافية من (محمود) لقاء ما بذلت من جهد، في علاج عضو عصابته..

ولأنني لم ارتبط يومًا بأي نوع من المخدرات (حتى لحظة كتابة هذه السطور) فقد تجاهلت توسلات وتضرعات ومحاولات (حجاج)، وقمت بالتخلص من الكمية كلها، وبوسيلة انفطر لها قلب الأخ (حجاج)، الذي اعتقد انه فكر جديًا يومها، في استئجار قاتل محترف، (ليلبد) لي في الذرة، جزاء ما أهدرته من خيرات، على حد قوله..

الشيء الذي لم أتصوره قط، أيامها، هو أن (محمود) قد اعتبرني، ومنذ تلك اللحظة، الطبيب الخاص له ولعصابته..

وخلال الأشهر التالية، كان من المعتاد، كلما سمعنا عن حمله من حملات الشرطة، أن يأتي (محمود) بالبغل والبغلة، بعد منتصف الليل، ليحملني مع حقيبة الأدوات الطبية، في رحلة طبية سياحية، على حساب (مطاريد تورز)..

وفى كل مرة كنت أعالج إصابة محدودة، أو إخراج رصاصة من ذراع أو كتف..

وفى كل مرة أيضًا، كنت احصل على الجنيهات المائتين، ولفافة الحشيش، التي ينفطر قلب (حجاج) لمصيرها، وهو

يدعو الله (سبحانه وتعالى) أن يرفع الأذى عـن (محمـود) وعصابته، حتى يرتاح هو من العذاب..

ولكن دوام الحال من المحال..

لذا فقد كان من المحتم أن ينتهي شهر العسل، بيني وبين صديقي اللص، وأن تحين لحظة المواجهة العنيفة دون مقدمات..

فذات ليلة ليلاء، دق (محمود) بابي، في الوحدة والنصف صباحًا، بدقات كفه الهادئة، التي أيقظت بعض النائمين في (الإسكندرية)، وعندما فتحت الباب، رأيت وجهه متهجمًا متوترًا، على نحو لم أعهده فيه من قبل، وهو يطالبني بإحضار كل الأدوات اللازمة، والتحرك معه على وجه السرعة..

وحملني البغل التقليدي خلف بغلة (محمود)، ورحنا نتوغل هذه المرة في دروب أكثر تعقيدًا، وعبر مناطق لم أعهدها من قبل، ولفترة أطول من المعتاد، ثم راح (محمود) يتسلق جبلاً وعرًا، وهو يحمل حقيبتي الطبية، وأنا أتسلق خلفه، محاولاً استعادة كل مشاهد الأفلام القديمة، التي تتحدث عن رياضة تسلق الجبال، إلا أن ذاكرتي السخيفة لم تسعفني إلا بكل مشاهد السقوط الرهيبة من الجبال..

ومن حسن الحظ أننا قد بلغنا مغارة كبيرة، قبل أن تنتقل الذاكرة إلى العضلات نفسها، وتتحول إلى حقيقة مؤسفة..

وبوساطة كلوب صغير، سرنا - (محمود) وأنا - داخل تلك المغارة، حتى لاح لنا ضوء كبير، عبر منعطف قريب، لم نكد ندور فيه، حتى وجدت نفسي داخل تجويف كبير، يقف فيه كل رجل العصابة، فيما عدا واحدًا، يرقد أرضًا، في غيبوبة تامة، وجلبابه غارق في الدم..

وبنفس الأسلوب الصارم الجاف، قال (محمود)، وهو يشير إلى الراقد:

- هيا.. قم بعملك.

كشفت جلباب الرجل، وحدقت في موضوع الإصابة بارتياع، قبل أن أهتف:

- ولكن هذا مستحيل!

شعرت، بعد خروج العبارة من حلقي، أنني قد نطقت كفرًا، فقد توتر الكل بشدة، وتبادلوا نظرة غاضبة شرسة، قبل أن يسألني (محمود):

- لمـاذا؟!

قلت في توتر:

- هذا الرجل مصاب برصاصة أسفل صرته، وهذا يعنى أنها قد اخترقت الغشاء البريتوني، وربما مزقت المعدة أو الأمعاء، أو المثانة، وهو يحتاج إلى عملية جراحية كاملة، تحت تعقيم كامل، وبوساطة مخدر عام، والأدوات التي أحملها غير مناسبة، وكذلك المكان.. لابد من نقل الرجل إلى المستشفى فورًا.. على الأقل ليحصل على بعض الدم؛ لتعويض كل ما فقده.

تبادلوا نظرة صامتة أخرى، وقال (محمود) في خشونة:

- أطرح فكرة المستشفى هذه عن ذهنك.. أنت ستقوم بالعمل هنا.. وحدك..

هتفت مرة أخرى:

- مستحيل!

زمجر في شراسة، وتحسس مدفعه الآلي في مغزى واضح، وهو يقول:

- قم بعملك يا دكتور.

كان أسخف وأصعب موقف واجهته في حياتي كلها، فرحت أتطلع مرة أخرى إلى الرجل، وأنا أقول في عصبية:

- سيلقى حتفه.

أجابني أحدهم في غلظة:

- هذا قدره.

وقال آخر:

- إنه ميت على أية حال.

أما (محمود) فقل بخشونة أكثر:

- قم أنت بعملك، واترك الباقي لله (سبحانه وتعالى)..

وأسقط في يدي تمامًا..

إجراء عملية جراحية كهذه، في ظروف ميكروبية مائة في المائة، أشبه بعملية قتل عمد، مع سبق الإصرار والترصد، أما عدم إجرائها، فهو حكم بالإعدام..

باختصار، كان الموقف يحتم وجود قتيل، أما الراقد على الأرض، أو كاتب هذه السطور.. فماذا تفعل لو كنت مكاني؟!

بالضبط.. أنا أيضا فعلت ما قلته أنت، وقررت إجراء العملية، مهما كان الثمن..

المهم أن أخرج من هذه المغارة بسلام، كما فعل (علـي بابا)، وليس على الأعناق، كما حدث لأخيه (قاسم)..

مع وضع حتمية موت الرجل فـي الاعتبـار، جعلـتهم ينزعون ثيابه، وصبغت بطنه كلها بـصبغة اليـود، دون أي مخدر عام، اعتمادًا على أنه فاقد الوعي بالفعل، وراح عقلي يسترجع كل المعلومات التشريحية والطبية، التـي لـم تكـن ذاكرتي قد أهملتها بعد، وأنا أمسك المشرط، وأسـتعيذ بـالله (سبحانه وتعالى) من الشيطان الـرجيم، وأدعـوه بالرحمـة وأناشده العفو والعناية ثم بدأت العمل..

كانت الرصاصة كانت اخترقت المثانة بالفعل، صانعة في مقدمتها ثقبا مثاليًا، متسعًا بما يكفي، لدس الجفت الجراحـي داخلها، والبحث عن الرصاصة..

ومن المؤكد أنني لا أذكر كيف ارتكبـت هـذه الحماقـة الحتمية، ولكن كل ما أذكره هو أنني لم أكـن أحمـل أيـة خيوط جراحية داخلية، من تلك المصنوعة من أمعاء القطـط المجففة، والمعالجة بحيث تذوب وحدها داخل الجسد، وإنمـا كان كل ما أحمله من الخيوط الجراحيـة الحريريـة، التـي تستخدم خارجيًا فحسب..

ولكن هذا لم يشغلني حينذاك، فالرجل - من وجهة النظر الطبية البحتة - ميت لا محالة، ففيم سيؤلمه أو يؤذيه وجـود خيوط غير صحيحة، في غشائه البريتوني أو المثانة؟!

يكفيه أطنان الغبار والميكروبات، التي ستملأ بطنه، مـن المكان المعقم الأنيق، الذي أجرى فيه العملية..

ولقد استغرق الأمر هذه المرة ما يقرب من ثلاث ساعات كاملة، أظنني فقدت خلالها ثلاث كيلوجرامات على الأقـل، ولكنني في النهاية أغلقت الجرح، وصبغته كله مرة أخـرى بصبغة اليود، ثم أحطت وسط الرجل بـثلاث لفافـات مـن الشاش، مع ربطه كاملة من القطن، قبل أن يسألني (محمود) في اهتمام:

- هل سيحيـا؟

أجبته بمنتهى الثقة والحزم:

- كلا بالطبع..

وجم الكل جوابي، وتبادلوا نظرة صامته متوترة، ثم قـال (محمود) في صرامة:

- هيا بنـا.

اصطحبني إلى الوحدة، في ضوء النهار، ووصـلنا قبـل السابعة بقليل، فأعطيت (محمود)، من باب المجاملة، بعـض الأدوية والمضادات الحيوية، مع وصف لكيفية استخدامها، لو فتح المصاب عينيه، ليقول وصيته الأخيرة..

وأخذ (محمود) الأدوية، وانصرف دون كلمـة واحـدة، ودون أن يمنحني شيئًا كعادتـه، على نحـو جعلنـي أفهـم الرسالة جيدًا.. إنه ينتظر النتائج..

ولم يغمض لي جفن ليومين تاليين، وأنا أفكر في هلع..

الرجل سيموت حتمًا، طبقا لكل القواعد والأعراف العلمية والطبية، فكيف سيكون موقف (محمود) ورجاله عندئذ؟!

هل سينفجر غضبهم، ويطالبون بالثأر من قاتله، الذي هو أنا طبعا، أم أنهم سيكتفون بطردي من البلدة كلها؟!

شغلني الأمر، واستحوذ على تفكيري تمامًا، طوال ما يزيد على الأسبوع، خاصة وأن (محمود) قد اختفى علـى نحـو عجيب، ولم يعد يظهر في أي مكان..

ثم رويدًا رويدًا، راح توتري يخفت حتى تلاشى تمامًا بعد مرور أسبوعين كاملين، باعتبار أن الرجل مات حتمًا خـلال ساعات، وليس هناك مبرر لانتظار الثأر طوال هذه الفترة..

ولكن فجأة، وفى الثانية والنصف صباحًا، تفجرت كـف (محمود) على باب مسكني كالمعتاد..

وفى هذه المرة كنت أرتجف حتمًا (من فرط الـشجاعة)، وأنا أسأله في حذر:

- خيـرًا.

أجابني بلهجة جافة كعادته:

- نريدك معنا.

قلت في توتر:

- فليكن.. سأرتدي ثيابي، وأحضر حقيبتي، و..

قاطعني بنفس اللهجة الجافة:

- لا داعي للحقيبة.

وهنا سقط قلبي بين قدميّ..

لا داعي للحقيبة؟!

ما الذي يعنيه هذا؟!

إنهم لا يحتاجون إلى أي تدخل طبي.. فلمـاذا يريـدونني معهـم؟!

ارتديت ملابسي في يأس واستسلام، وركبت ذلك البغل، الذي حسدته هذه المرة على انعدام شخصيته وانقياديته، وهو يعدو في سلبية خلف البغلة، التي تقوده في كل مرة، والتي من المؤكد أنها ستقنعه مستقبلاً بالأكل من شجرة التين، حتى يطرد من جنة البغال (أعتقد أنها قارة استراليا، تبعًا لما نصف به البغل دومًا)..

وفي تلك المرة أيضًا رحنا نسير عبر الطريق الصعبة، والدروب الوعرة المعقدة، ولفترات طويلة، قبل أن نصل إلى ذلك الجبل، ونتسلقه، ثم ندخل المغارة..

كان الكل يجلس، في أضواء الكلوبات، وما أن رأونا حتى نهضوا لاستقبالنا، وصافحوني جميعهم، ووجوههم تحمل ابتسامة، بدت لي - وقتها - أشبه بابتسامة الذئب، وهو يستقبل الحمل العبيط، الذي جاء بقدميه إلى وكره..

وجلست بينهم صامتا، وقد خلت عروقي من كل قطرة دم وزاغت عيناي كالمخبولين، وهما يحدقان في المدافع الآلية التي ستنطلق كلها بعد قليل في صدري..

ثم فجأة ظهرت النسوة وهن يحملن صواني الطعام..

رجل المستحيل.. أوراق لم تنشر

وهنا، هوى قلبي بين قدميّ..

إنني أعرف هذا الأسلوب جيدا..

أسلوب الوجبة الفاخرة، التي تقدم للمحكوم عليه بالإعدام، قبل تنفيذ الحكم مباشرة..

والوجبة التي أمامي، كانت تحوي بعض الدجاج، والبط، والحمام المحشو، إلى جانب (هبر) اللحم، والويكة والملوخية بالطبع..

وما أن دعاني (محمود) لتناول الطعام، حتى قفز لساني من خلف الجاف وأنا ألقى سؤالا واحدًا، لتحديد مصيري النهائي..

- كيف حال مريضنا إذن؟!

ابتسم الكل، وأحدهم يقول:

- في خير حال.. أنت رجل بركة.

هتفت بكل دهشة الدنيا:

- هل عاش..

قهقهوا ضاحكين، قبل أن يقوم أحدهم:

- سلامة الرؤية يا دكتور أنه يجلس إلى جوارك مباشرة.

وهنا تحولت دهشتي، ومشاعري كلها، إلى ذهول..

ذهول بلا حدود، وأنا أحدق في وجه الرجل الجالس إلـى جواري، وكأنما أحدق في وجه شبح..

إنه هـو!!

كيف لم أتعرفه في البداية؟!

إنه نفس المصاب، الذي أجريت له العملية، خـالف كـل القواعد الطبية المعروفة، من أيام (حورس)..

وهو حي، يرزق.. ويبتسم أيضًا!!

وبكل ذهولي هتفت به:

- أهو أنت؟

أومأ برأسه إيجابًا، بابتسامة تلتهم وجهه كله، وهو يقول:

- البركة فيك، بعد الله (سبحانه وتعالى).

سألته ذاهلاً مبهوتًا:

- أنت على ما يرام؟! أعنى هل تتبول بصورة عاديـة، ولا تعانى من آلام مبرحة، أو مغص مستمر، أو...

قاطعني بنفس الابتسامة البلهاء:

- البركة فيك..

كان المفترض أن يزيل هذا كل تـوتري وهلعـي، إلا أن مشاعري كلها كانت تلتهب بفضول ذاهل، أمام تلك المعجزة الطبية، على أي مقياس..

أمور كثيرة كان ينبغي أن تحدث، عندما أجريت العمليـة للرجل، ولكنها لم تنفذ إطلاقًا..

خيوط الجراحة الداخلية..

القسطرة البولية..

التعقيم الكامل..

الأدوات المناسبة..

بل والمدهش أنه لم يتناول الأدوية والمضادات الحيويـة أيضًا.. ولم يغير الشاش والقطن مرة واحدة..

وعلى الرغم من كل هذا، كان جرحه الخارجي منـدملاً نظيفًا، سقطت معظم غرزه من تلقاء نفسها، علـى نحـو لا يحدث حتى للمرضى الموصى عليهم، في أفضل المستشفيات الاستثمارية الآن..

وهذا يؤكد أن هؤلاء البسطاء دائمًا على حق..

الشفاء من الله (سبحانه وتعالى) وحده..

ودون أية أسباب، سوى رغبته (عز وجل)..

المهم أنني وأمام هذه المعجزة، استعدت مرحى وحيويتي، وأقبلت على الطعام بشراهة كبيرة، حتى أنني أحببت الوَيكة والملوخية (تصوروا)..

وعندما أعادني (محمود) إلى الوحدة الصحية في الصباح، منحنى رزمة أوراق نقدية ضخمة، مع ابتسامة عريضة جدًا، وهو يغمز بعينه، قائلاً:

– (حجاج) أخبرني أنك لا تتعاطى المخدرات، لذا فهي من نصيبه هو هذه المرة..

يا للخبيث (حجاج) هذا!

لا يضيع فرصة للربح والاستفادة قط..

ولكن هذا لا يهم، فالمهم أنني قد خرجت من هذه الأزمة بسلام، وأصبحت صديقًا مقربًا للأخ (محمود)، الذي أسبغ على حمايته ورعايته، طوال فترة عملي في الصعيد بعدها..

ولقد عرف الكل هذا بالطبع، وأدركوا أنني أصبحت أختلف عن كل طبيب عمل في هذه الوحدة من قبل..

ولكن حتى هذه الحماية البريطانية التي أسبغها على صديقي اللص، لم تكن تعنى أن الحياة في الصعيد الجواني قد أصبحت قطعة من الجنة..

فما زالت هناك مشكلات أخرى، ومخلوقات أخرى، ولا يملك أي بشري السيطرة عليها أو منعها هناك..

مخلوقات صغيرة..

وقاتلة..

وفى هذا الشأن كانت لي تجارب عديدة..

ورهيبة..

٩

أعداء صغار

٩) أعـــداء صغـــار..

الحياة في حضن الجبل، في صعيد مصر، لها طابع خاص جدًا.. طابع يتميز بالخشونة.. والقساوة.. والحرارة الشديدة.. و..

والخطر..

والخطر هنا لا يكمن في المطاريد، أو حروب الثأر، أو حتى في عقول إخواننا الصعايدة، وإنما يكمن أيضًا في زوار غير مرغوب فيهم، اعتادوا التجول في كل مكان، بمنتهى الحرية، ومباغتتهم في أية لحظة، دون دعوة أو سابق إنذار..

ولأنني أقمت هناك، في حضن الجبل، لما يقرب من العامين، كان من الطبيعي أن أحظى بزيارة هؤلاء الأعداء الصغار..

العقارب بألوانها، والثعابين والأفاعي بأحجامها المختلفة..

وقبل أن يصيبكم الذعر والفزع، دعوني أذكركم بأن هذا أمرًا عادى للغاية في حضن جبل الصعيد، والناس

تتعايش معه باستسلام تام، وتقبل عجيب، بل ويتخذه البعض لعبة أيضًا..

نعم.. لعبة.. إنك لم تخطئ في قراءة الكلمة..

ودعني أرو لك قصتين سمعتهما بأذني هناك، لتدرك ما أعنيه..

فذات يوم، وبينما كان صديقي العزيز الدكتور محمد حجازي، في زيارتي، في الوحدة الصحية في حضن الجبل (وهذا ليس تشكيكًا في قواه العقلية)، سأل أحد الأخوة الصعايدة، في مجلس هادئ، عن العقارب التي تنتشر في جبال الصعيد، وقال: إنه لم ير عقربًا واحدًا، منذ وصل إليّ..

وببساطة شديدة، انحنى أحدهم يرفع حجرًا، تحت قدم الدكتور (حجازي) بحثًا عن عقرب، ليريه إياه..

ومنذ ذلك اليوم، وحتى عاد الدكتور (حجازي) إلى موطنه الأصلي، في شمال البلاد، لم يضع قدمه على أرض الصعيد، مادام في المكان حجر واحد مقلوب..

الطريف أنه لما انزعج هو لما حدث، انطلق الجميع يضحكون، وكأنما لا يصح له أن يخشى العقارب السامة القاتلة. ثم روى أحدهم أنه أراد يومًا مداعبة أمه، فاصطاد

عقربًا أسود (وهو أشدّ العقارب خطورة وسمية)، وقطع ذيله، ثم وضعه في راحته، وصافح أمه في حرارة، تاركًا العقرب في كفها، فقفزت مذعورة، وفقدت وعيها (المسكينة)..

ولقد انفجر الجميع ضاحكين، لطرافة الدعابة، في حين فغرت أنا وصديقي الدكتور (حجازي) فاهينا، ونحن نحدق فيهم بدهشة مستنكرة..

وأعتقد أننا، في الليلة نفسها، وضعنا أوّل صفحة، في بحث طويل، عنوانه:

"لماذا يطلقون النكات على الصعايدة"..

القصة الثانية هي أنه ذات يوم، جاء اثنان من شباب الصعايدة الأصدقاء لزيارتي، وهما يقهقهان ضاحكين، وأحدها يحمل كيسًا من القماش..

وعندما سألتهما عما يضحكهما، أخبرني أحدهما أنهما لمحا ثعبانًا بالقرب من الطريق، فوضعا خطة لاصطياده، وتسلل أحدهما ليجذب ذيل الثعبان، وعندما رفع الثعبان المسكين رأسه، ليهاجم من جذب ذيله، عاجله الشاب الثاني بضربة على رأسه بهراوته، فقتله فورًا..

وفي نهاية القصة، أفرغ الشاب محتويات الكيس القماش الذي يحمله، على سطح مكتبي، فإذا به الثعبان الصريع..

ولثوان حدّقت في الثعبان بمنتهى الرعب، على الرغم من أنه ميت، وأنا أتساءل: كيف سعى هذان الشابان لاصطياده، وهو يجلس في حاله؟!

هه... صعايدة!!

السؤال الآن هو ماذا ستفعل أنت، لو التقيت بثعبان في الطريق؟!

هيا.. قف.. لا داعي للجري الآن.. إنه مجرّد افتراض..

واستعد للخبر المدهش..

أنا التقيت به في فراشي، داخل الوحدة الصحية..

كانت ليلة باردة كالثلج، من الليالي التي تنعكس فيها الرياح عن الجبال المحيطة، لتصبّ على البلدة، فتجعلها أشبه بالثلاجة..

في تلك الليلة أويت إلى فراشي في العاشرة مساءًا، وأنا أدعو الله ألا يأتني زائر من زوار الفجر، الذين انتبهوا فجأة إلى أن أحد أبنائهم يختنق، منذ سبعة أشهر، وبدت لهم الحالة

عاجلة ومستعجلة، تحتاج إلى إيقاظ الطبيب فورًا، قبل مرور عشرة أشهر أخرى خشية أن يختنق الابن بجد..

ومن المؤكد أنني قد غرقـت في النوم فورًا، ورحـت أحلم أحلامًا غير مفهومة، حتى شعرت فجأة بجسم دافئ يلتصق بي..

ولأنني غارق في النوم، ولأنني معتـاد أن يـدس قطـي الصغيرْ (بلبل) نفسه في فراشي، في ليالي (طنطا) البـاردة، فقد توهمت أنني راقد في فراش مدينتي، وأن هـذا قطـي، فأفسحت له مكانًا، وواصلت نومي، وأنا أشعر بدفء جسده جواري.. ولسبب ما فتحت عيني فجأة..

ورأيت نفسي داخل حجرة الوحدة الصحية..

عندئذ فقط، أدركت حقيقة الموقف، وأنني في (قنا)، ولست في (طنطا)..

وهنا اتسعت عيناي في رعب، وخفـضتهما فـي حـذر، لأنظر إلى ذلك النائم إلى جواري، فوق الغطاء، والذي يـشع دفئًا عجيبًا..

ورأيتـه..

ثعبان كبير لطيف، تكور على نفسه علـى نحـو شـديد الانتظام، ودفن رأسه وسط جسده الملتف على نفـسه، وراح أيضًا في سبات عميق، وكأنه يرقد على فراش أبيه..

ولدقيقة كاملة أو ما يزيد، لم أنبس ببنت شفة، ولم أتـنفس أيضًا على الأرجح، وأنا أفكر في هذا الموقف، وفـي كيفيـة الخلاص منه.. ولم يكن هناك سوى حل واحد..

وببطء وحذر زائدين، رفعت الغطاء عن جسدي، وعينـي معلقة بجسد ذلك الثعبان النائم..

ثم فجأة ألقيت الغطاء فوقه، وقفزت من الفراش، وأنا أعدو بسرعة مائة كيلومتر في الدقيقة، حتى أصبحت فـي نهايـة الصالة، حيث عصا غليظة طويلة، أهداها أحـد الأصـدقاء للدكتور (محمد)، طبيب الوحدة السابق، اختطفتها، وعدت إلى الحجرة (شوف الجنان) ورأيت صديقنا الثعبان يجاهد للخروج من الغطاء، الذي التف حوله، فهويت عليه بالعصا الغليظـة، مرة.. ومرة.. ومرات..

لست أدرى بالظبط كم مرة هويت بها عليه، ولكنني لـم أتوقف، حتى همدت حركته تمامًا، وظهرت بقعة صغيرة من الدم على الغطاء..

ولثوان، توقفت عن الضرب، وأنا ألهث بشدة، وأحدق في الفراش، ثم لم ألبث أن قررت مواصلة الضرب للأمان، فهويت عليه سبعمائة أو ثمانمائة ضربة تأكيدية، قبل أن أتوقف بسبب التعب والإجهاد..

وبعد ساعة تقريبًا، كان الفجر يلقى أضواءه الأولى على السماء، حملت الغطاء بالقتيل وألقيتهما من الشرفة عند أقدام حارس الوحدة الذي فوجئ بما حدث، فسألني في دهشة حائرة عن سر ما أفعله..

وهنا تقمصت شخصية (طرزان)، الذي لا يهاب كل وحوش الأدغال، وأخبرته بكل ثقة وتعال أنه مجرد ثعبان، وجدته في فراشي فقتلته..

هكذا، بكل بساطة، وكأنني صعيدي ابن صعيدي..

المشكلة التي حدثت بعد هذا، هي أن الكل اخبرني أن وليفة الثعبان تصر دومًا على الثأر له، وأنها تسعى للبحث عن قاتله، حتى آخر عمرها..

لذا فقد قام العمال بتنظيف الوحدة كلها في اليوم التالي، وتفتيش كل شبر منها، ثم حرصت أنا بعدها على إغلاق النوافذ والأبواب بمنتهى الإحكام، والنوم بعين ونصف، خشية

أن تأتي الوليفة، ويحدث ما لا تحمد عقباه، ورحت أمني نفسي بأنه من المحتمل أن أكون قد قتلت الوليفة، والذكر نذل لن يأتي للثأر طبعًا..

هذا ما كان من أمر الثعابين..

أما العقارب فلي معها قصتان..

وهذا طبعًا بالإضافة إلى عشرات القصص، التي عشتها لحظة بلحظة، كطبيب الوحدة الصحية، وحامل المصل المضاد للعقارب، الذي تمتلئ به مخازن وثلاجات كل الوحدات الصحية في ريف الصعيد..

لقد شاهدت عشرات أنقذهم المصل المضاد لسم العقارب، وعشرات آخرين اختطفهم الموت بلا رحمة، على الرغم من المصل والرعاية الطبية..

ولقد سمعنا أيامها عن زميل لنا، كان يخشى العقارب بشدة، حتى إنه كان يفحص حذاءه قبل أن يرتديه، ويفتش حجرة نومه كل يوم، ويعلق زمزمية مياه بحبل في السقف، حتى يضمن بعدها عن العقارب، وعلى الرغم من هذا، فقد التقط زمزميته يومًا ليشرب، فخرج منها عقرب أسود صغير، لدغه في شفته العليا، وهرب..

ومات الزميل المسكين من شدة الرعب والفزع، قبل حتى أن يحقن نفسه بالمصل..

هذه القصة سمعناها جميعًا هنـاك، وجعلتنـا نـدرك أن العقارب شيء بغيض، ينبغي الحرص كل الحرص منه..

ولكن الحذر لا يمنع القدر..

هذا ما تعلمته ووعيته جيدًا هناك..

فذات يوم، وعلى الرغم من كل ما اتخذت من احتياطات، كنت أحضـر بعض الأدوية من صـيدلية الوحـدة، عنـدما شعرت بألم مباغت في قدمي، وشاهدت عقربًا أحمر اللـون يعدو مبتعدًا..

وبسرعة، سحقت العقرب بقدمي، ثم هرعت إلى ثلاجـة الوحدة، وحقنت نفسي بالمصل فورًا..

في البداية، شعرت بخدر عجيب يسري في ساقي، حتـى أسفل ركبتي، وتصـورت أنه لن يلبث أن يمتد إلى جسـدي كله، إلا أنه راح ينسحب في سرعة، حتى تلاشـى تمامًـا، وتعافيت بسرعة..

هذه التجربة جعلتني افقد الخوف المرضي من العقـارب، واكتسب ثقة كبيرة في المصل المضاد لسمومها..

ولكن المشكلة أن المصل لا يتوفر دومًا بالوحـدة؛ ففـي بعض الأحيان ينفذ المصل بسبب النشاط الزائد للعقارب، مع ارتفاع الحرارة، ونقضي يومًا أو نصف اليوم، قبل أن تصلنا الطلبيه الجديدة منه..

وذات ليله شديدة الحرارة، كنا في انتظار وصول المصل، عندما تم استدعائي لرؤية حالة عاجلة، في نجع مجاور..

كان منزلاً صغيرًا، شبه مظلم، لا يضيؤه سوى مـصباح زيتي صغير، والمريض يرقد على فراش من الطوب اللبني، وعليه غطاء ثقيل (لست ادري كيف)، والعرق يغمر جـسده، من فرط الحمى، والحرارة والغطاء..

وقمت بتوقيع الكشف المعتاد على المريض، ثـم سـحبت الغطاء؛ لأستمع إلى نبضات قلبه، عندئـذ فوجئـت بعقـرب صغير، يقفز من الغطاء ويسقط على قدمي، ويلسعني لـسعه قوية مؤلمه في كعبي.. يا للنصيـب! العقرب يرقد في حضن الرجل، ليلسعني أنا بالتحديد!!

المشكلة أنني كنت على مسافة كبيرة من الوحـدة، ومـن أقرب مركز للإسعاف، كما أن الوحدة كانت تخلو تمامًا مـن المصل المضاد لسموم العقارب..

وكان هذا يعني مصيرًا واحدًا، شاهدته بنفسي أكثر من مائة مرة..

الموت..

ولكن أصحاب الدار بدوا هادئين للغاية، وهذا أمر طبيعي؛ لأنها حياتي وليست حياتهم، ثم أرسلوا في طلب الحاوي..

والحاوي هنا ليس هو ذلك الذي نراه في الموالد، والذي يخرج المنديل من انفه، والبيض من فمه.. إنه شخص آخر تمامًا، مهمته التعامل مع سم الثعابين والعقارب..

وبحكم مهنتي ودراستي كطبيب، كنت استنكر بالطبع مثل هذه المهنة، وأعتبرها نوعًا من الدجل والشعوذة، مما جعلني عصبيًا متوترًا، كأي شخص مقدم على موت محتوم..

ولكن الرجل جاء..

رجل في حوالي الستين من عمره، من قبائل بدو العرب، هادئ ووقور جدا.. قام بفحص موضع الإصابة في بساطة، ثم ربط ساقي بقوة، أسفل ركبتي تمامًا، وطلب إحضار وعاء به ماء ساخن جدًا، وأذاب فيه ما يقرب من ثلاثة كيلوجرامات من الملح العادي، ووضع قدمي في الوعاء (ليسلقها) على

الأرجح، ثم راح يتلو عبارات عجيبة غير مفهومة، وهو يجرح موقع اللسعة بموس جديد، ويفصد دمى في الوعاء الساخن، وأصابتني دهشة عجيبة في البداية، خاصة وأن الخدر راح ينسحب من قدمي بمنتهى الهدوء والسرعة..

تماما كما فعل المصل من قبل..

ثم فجأة، انتبهت إلى أن الأمر علمي تمامًا..

الماء الساخن جدًا سيؤدى إلى تمدد الأوعية الدموية، والرباط أسفل الركبة سيحصر الأمر في منطقة الساق، والجرح الصغير سيحدث اتصالاً مباشرًا، بين الدم والماء الساخن، الذي يحوى كمية ضخمة من الملح، ترفع ضغطه الأسموزى، إلى الحد الذي يكفي لسحب كل السموم من ساقي، اعتمادًا على النظرية العلمية، التي تؤكد انتقال السوائل، من الوسط الأقل تركيزًا، إلى الوسط الأعلى تركيزًا..

إذن فهؤلاء البسطاء يستخدمون قواعد علمية سليمة، نتجت حتمًا عن دراسة قديمة، أو خبرات نمت بانتقالها من جيل إلى جيل.. أما الهمهمة والكلمات العجيبة، فهي مجرد خزعبلات، لإضفاء جو من القدسية والرهبة على العملية كلها..

والواقع أن هذا الموقف قد جذب انتباهي إلى جزء أخر من حياة جبال الصعيد، لم أكن قد انتبهت إلى وجوده من قبل..

إلى البدو، بعالمهم الغامض والمثير، والزاخر بعشرات الأسرار والمبهرات..

ولأنني فضولي (وغلس) بطبعي، فقد قررت إلى الغوص في هذا العالم، والبحث عما يعرفه هؤلاء البسطاء، وما كشفوه عبر أجيال وأجيال من الخبرة..

وهذا ما فعلته لأجد أمامي مفاجأة تفوق كل تصوراتي..

مفاجأة مذهلة..

بحق..

١٠

كولة أبو ليلة

١٠) كولـــة أبو ليلـــة..

بدأ الأمر كله بفضول غلس..

أحاديث شتى عن البدو، وعادتهم، وطبـــائعهم الخاصـــة، وأساليبهم المدهشة، في علاج عدد من الأمـــراض المزمنـــة والمستعصية، أثارت اهتمامي وفضولي، ودفعتني إلى البحث عن وسيلة لزيارة البدو، ومعايشتهم، ورؤية عجائبهم بنفسي..

في تلك الفترة كانت صداقاتي قد اتسعت، وامتدت من أبو دياب شرق إلى أبو دياب غرب، تلك القرية الأكثر تحـــضرًا وحداثة، بحكم وجودها على الطريق الإسفلتي مباشرة، والتي يربطها طريق ترابي ضيق بالقرية التي أعمل بها، بالإضافة إلى المزارع، التي تجاور القريتين..

وفى أبى دياب غرب، جمعتني الصداقة بعدد من أفـــضل من عرفتهم في حياتي كلها..

عبد العليم أبو زيد.. وكمال محروس.. وأبـــو الحـــسن، وعفيفي، وأحمد محمود حسين، وغيرهم..

ولأن عبد العليم خريج علوم متفتح، وكمال سائق لـــسيارة ميني باص، فقد خرج الاثنان معي لزيارة البدو، ولتفقد منطقة الجبال، التي تحيط بي من كل جانب..

في البداية، بهرتني حياة البدو، وأساليبهم وطرق علاجهم، ورايتهم يداوون مرض السكر بمسحوق الترمس والبواســير بلبن الصبار، وآلام المعدة بزيت البيض..

وكل ما ذكرته في الأسطر السابقة حقيقي، شـــاهدته بـــأم عيني، حتى لقد تصورت أن هؤلاء هم الذين دهنـــو الهـــواء دوكو، والذين خرموا القرش من ناحية واحدة..

ومع انبهاري ذلك الطب البدائي، وبعد أن تناولت ثلاثـــة تعابين مشوية، وعقربين مسلوقين، وقليلاً من الظلوط المقلي بزيت البندريس، بدأت أشعر بالإرهاق مـــن حيـــاة البـــدو، وقررت أن أكتفي بزيارة الجبل..

وقبيل العصر، حملتنا سيارة كمال إلى الجبال..

وبالتحديد إلى تلك المنطقة الشهيرة، المعروفة هناك باسم (كولة أبو ليلة)..

ومصطلح (كولـــة) هذا أدهشني في البدايـــة، ثم لم البث أن أدركت أنه المصطلح الدارج لكلمـــة مرتفـــع، أو جبـــل

متوســـط، أو بمعنى أدق، منطقـــة تتناثر فيها الجبال، حـــول واد محدود..

هذا باختصار مخل، معنى كلمة (كولة)..

وفى طريقنا إلى هذه الكولة، راح عبد العليم يـروى لـي بعض الحكايات الشائعة حولها، ومنها أنها منطقة تحوى كنوز الدنيا كلها، وأن الموعودين فقط من عثروا فيها على الذهب، والمجوهرات، والآثار، و....، و...

ومن كثرة حديثه وشدة حماسه، خُيل إلى أن كـل كنـوز الفراعنة قد تم العثور عليها في هذه (الكولـــة) الأســطورية، حتى قال (عبد العليم) في حماس شديد، أن (كولة أبو ليلـــة) هذه كانت تحوى الصخور السبع أيضا..

وهنا جذب الأمر انتباهي بالفعل، وسألته عما يعنيه بهـذه الصخور السبع، فراح يروى لي قصة أشبه بالأساطير، عـن سبعة أحجار ضخمة، في ضخامة الهرم، كانت موجودة قديمًا في وادي (كولة أبو ليلة) هذه، ثم اختفت ذات يوم، ولم يعـد لها أدنى اثر..

ومع قصة كهذه، كان من الطبيعي أن أضـحك طـويلاً وكثيرًا، وأن أسخـر من القصة، والفكرة كلهـــا، ولكـن

(عبد العليم) عاد يؤكد قصته بمنتهى الإصرار، ويقـول: أن ولده شاهد هذه الأحجار بنفسه، و....، و...

ولم أحاول معارضته مرة أخرى، واكتفيت باستماع يفتقر إلى الحماس، وسيارة كمال تنهب المنطقة، في طريقها إلـى الكولة الأسطورية العجيبة..

(كولة أبو ليلة)..

وأخيرًا وصلت السيارة إلى الكولة.. ولن يمكنني أبـدًا أن أصف لكم مشاعري وأنا أشاهد هذه المنطقة للمرة الأولى..

لقد وجدت نفسي أمام دائـرة مـن الجبـال المتوسـطة الارتفاع، تحيط بمنطقة منبسطة تمامًا..

وكلمة منبسطة هذه ليست مجازية على الإطلاق، فباستثناء بعض الحصى الصغير، والأحجار المتناثرة هنا وهناك بفعل عوامل الطبيعة العشوائية، كانت الأرض التي تحيط بها هـذا الجبال عبارة عن مساحة منبسطة تمامًا، على نحو يـستحيل وجوده في الطبيعة، مما يوحى إليك بأنه قد جـرى تمهيـدها ذات يوم وإعدادها لأمر ما..

وعندما صعدنا إلى أحد الجبال، رأيت بقايا آثـار سـبعة أجسام ضخمة واضحة، وسط تلك المساحة المنبسطة..

ومع عقلية كعقليتي، وقراءات علمية كثيرة يزخر بها عقلي، كان من الطبيعي أن يخلب الموقف كله لبى، على نحو فائق..

وطوال فترة وجودنا في (كولة أبو ليلة)، رحتْ افحص كل ما تقع عليه يداي، وكأنما أتوقع أن أجد صامولة من سفينة فضاء، أو فردة حذاء قديمة لمخلوق مريخي، عاد إلى كوكبه حافيًا..

وعندما اقترب غروب الشمس، كان من الطبيعي أن نعود إلى الوحدة الصحية في أبو دياب شرق، بعد أن أصبحت أنا من مجاذيب (كولة أبو ليلة)..

وفى المساء وبعد عشاء طبيعي، مكون من الويكة والملوخية، مع كوب من عصير الويكة المثلج بماء الطلمبة، جاء الشيخ إبراهيم ليقضى أمسيته بصحبتي كالمعتاد..

وبعد أحاديث ثقافية ممتعة، حول البروفيسير هريدي صاحب نظرية (اللبد في الذرة)، والفيلسوف الشهير (صميده)، الذي أثبت أن المخ مجرد عضو إضافي بلا فائدة محددة، تمامًا مثل الزائدة الدودية، سألت الشيخ إبراهيم عن الأحجار السبعة، في كولة أبو ليلة..

وبهدوئه المعهود، ورصانته التقليدية، أخبرني الشيخ إبراهيم أن القصة حقيقية تمامًا، وأنه رأى تلك الأحجار السبعة الضخمة في صباه، وأن الواحد منها كان من الضخامة، بحيث يختفي الجمل المحمل بالتبن، عندما يسير خلفه، ولكنه لا يدرى أين ذهبت تلك الأحجار، ولا مصيرها..

وعندما يسمع شخص قضى نصف عمره في قراءة ودراسة الظواهر الغامضة حديثًا كهذا، في مكان مهمل، مثل أبو دياب شرق، فلابد أن يشتعل فضوله على نحو طبيعي..

وهذا ما أصابني بالتأكيد..

ولقد طفت أبو دياب شرق كلها، لأسأل كل الكبار عن كولة أبو ليلة وأحجارها السبعة، التي اختفت في غفلة من الزمن، دون أن تترك خلفها أدنى اثر..

والعجيب أن الكل راح يردد قصة واحدة لا تتغير، هي تؤكد أن الأحجار الضخمة السبعة كانت هناك، ثم لم يكن لها وجود..

ونظرًا للحجم التقديري، الذي وصف به الكل هذه الأحجار، أصبح اختفاؤها أمرًا مثيرًا وعجيبًا للغاية..

ثم فجأة ظهرت تلك القصة الجديدة..

كنت أتحدث عن الأحجار السبعة، و(كولة أبو ليلة)، عندما بدأ الحاج حنفي يروى بغتة قصة أكثر عجبًا..

والحاج حنفي هذا لمن لا يعرفه، أكبر معمر عرفته في حياتي كلها، فقد توفى في أثناء عملي في (أبو دياب شرق)، عن مائة وخمسة وأربعين عامًا، لقد كتبتها بالحروف، حتى لا يحدث أي خطأ مطبعي، ولقد ظل طيلة عمره بدائيًا صارمًا، لا وقت لديه للهزل أو الدعابة، ولا يستمع إلى الراديو، أو يشاهد التليفزيون، أو حتى يغادر القرية، حيث مسكنه وأرضه..

ولهذا كان ما رواه الحاج حنفي مدهشًا بحق..

لقد تحدث عن طائرة من طراز ما، وصفه بأنه هليكوبتر على الأرجح، ولكن هذا كان في أثناء الحرب العالمية الثانية (مما ينفى كونه طائرة هليكوبتر)..

المهم أن تلك الطائرة، غير المحددة الهوية، قد هبطت في تلك الفترة، عند منطقة (كولة أبو ليلة) وخرج منها رجل وامرأة، يرتديان زيًا فضيًا لامعًا، مما أثار ذعر إخواننا الصعايدة، وعلى رأسهم الحاج حنفي، فهجموا على الرجل والمرأة، وقدموا لهم تحية معتبرة، بكل شومة يحملونها، حتى

قضوا عليهما تمامًا، وبعدها حطموا الطائرة، واحتفظ كل منهم بجزء منها..

وبمنتهى الوقار والكبرياء، كدت أقبل قدمي الحاج حنفي ويديه، ليريني فقط ذلك الجزء، الذي احتفظ به، من الطائرة إياها..

ولأن الرجل طيب القلب، فقد وافق بعد ثلاثة أيام، وبعد أن خمن أنني قد بلغت الدرك الأسفل من الإذلال، على أن يريني تلك القطعة، وغاب يومًا رابعًا، ثم أتى ليريني قطعة من القماش المهترئ، من الواضح أنها كانت مدفونة في مكان ما، وفتحها ليخرج منها قطعة من معدن لامع، حوالي عشرين سنتيمترًا في ثلاثين سنتيمترًا، مازالت تلمع وكأنها جديدة، وعليها جزء من نقش لم يمكنني تميزه أبدًا..

ولكن المدهش أنها، وعلى الرغم من حجمها هذا، كانت خفيفة الوزن إلى حد عجيب..

وفي هذه المرة لم يفلح تقبيل الأيدي والأقدام أو حتى الـ (.....)، فقد رفض الحاج حنفي تمامًا أن يترك لي قطعة المعدن هذه، وكأنها ميراث يحمل اعتبار وكرامة الصعيد كله، ولكنه وعدني بإحضارها مرة أخرى، عندما يأتي صديقي الدكتور (محمد حجازي) لزيارتي..

وبعد عدة أشهر، حضر الدكتور حجازي..

ولكن الحاج حنفي لم يحضر قطعة المعدن كما وعد..

منعه أمر مهم جدًا من الحضور..

لقد مـــات..

ومن المؤكد أن هذا قد حرم صـــديقي الـــدكتور (محمـــد حجازي)، والأكثر اهتمامًا مني بهذه الأمور، من رؤية تلـــك القطعة المعدنية، التي كنت، ومازلت، وسأظل أصر على أنها جزء من سفينة فضاء من عالم آخر، حتى ولو سخرت الدنيا كلها من تصوري هذا..

فمن رأى ليس كمن سمع..

أو قـــرأ..

ولكن القدر لم يحرم الدكتور حجازي من مشاهدة وسماع فصل آخر من القصة.. فصل جاء بالمصادفة البحتة..

فبينما نجلس معًا، في ساحة الوحدة الصحية، جاء الخفير المسن عم (حارس)، ليجلس على الأرض إلى جوارنا..

و(حارس) هذا رجل ضئيل الجسد، نحيل، أشيب الـــشعر، ضخم الشارب، على نحو يجعله أشبه بممثل هزلي، في أحـــد

الأفـــلام المضحكة، ولكنه في الوقت ذاتـــــه طيـــب القلـــب للغاية، وبسيط جدًا، شأن أي شخص لم يغادر القرية التي نشأ فيها قـــط..

ولأننا كنا نتحدث عن (كولة أبو ليلة) فقد اكتفى بمتابعـــة حديثنا في صمت، حتى سأله الدكتور حجازي عما إذا كـــان يعرف قصة تلك الأحجار السبعة..

وهنا جعل عم (حارس) شعر رأسينا يقف رهبة..

فببساطة مدهشة، وتلقائية بلا حدود، روى لنا عم (حارس) أنه قد رأي تلك الأحجار السبعة في طفولته، واعتـــاد اللهـــو عندها، بحكم أن أرضهم تجاور موقعها، ولكن في ذات ليلة، خرج والده ليروي أرضهم على ضوء القمر، ثم عـــاد إلـــى المنزل مذعورًا، يرتجف على نحو عجيب، ثم روى لهم أنه، بينما كان يروي أرضه، فوجئ بحجر ضخم لامع، يهبط من السماء، ثم يخرج منه رجل في زي فضي، وعلى رأسه كره من الزجاج الداكن، وأن هذا الرجل، أو هـــذا الجنـــي، كمـــا وصفه (حارس)، نقلاً عن والده، ألـــصق بعـــض الأجـــسام المستديرة بتلك الأحجار السبعة الضخمة، فارتفعت كلها إلـــى السماء، واختفت وسط الظلام، قبل أن يعود هو إلى مركبته، وينطلق بها..

وفي الصباح، ذهب حارس وأشقائه، مع عدد من أهل القرية، للتيقن مما رواه والده، فلم يجدوا أثرًا لتلك الأحجار السبعة!!

هكذا، وبكل بساطة، ومن بين شفتي شخص لا يعلم بعد أنهم قد اخترعوا الفيديو والتليفزيون، ووصف عم (حارس)، عن لسان والده، سفينة فضاء، ورائد فضاء بزيه اللامع، وخوذة التنفس على رأسه؟

ولم يكن الأمر يحتمل تفسيرًا آخر..

فمن المستحيل أن يصف شخص مثله هذه الأمور، ما لم يكن قد سمعها عن لسان والده، الذي وصف ما رآه بالفعل..

والعجيب أنني عندما بدأت في الاستفسار من كبار القرية والمسنين، عن القصة التي رواها (حارس)، أكد الكل صحة ما قاله والده في الخمسينيات، ولكنهم قالوا: أنه مخرف حتمًا، أو ملموس من الجن، وإن أجمعوا في تناقض عجيب، على أن الأحجار السبعة قد اختفت بالفعل، في اليوم التالي لروايته..

ولقد أرسلت أيامها رسالة بكل هذا للأستاذ (أنيس منصور)، متصورًا أن ما حدث سيثير اهتمامه ولكنني لم أتلق جوابًا عنها بعد..

وعندما أعياني البحث.. وأعيتني الحيلة..

توقفت عن ملاحقة قصة (كولة أبو ليلة)، على الرغم من التساؤلات العديدة، التي طرحتها في نفسي، والتي لم أجد لها جوابًا شافيًا، حتى لحظة كتابة هذه السطور..

فما طبيعة تلك الأحجار السبعة؟!

وما أهميتها؟!

وما صحة كل ما سمعته في (أبو دياب شرق) عنها؟!

ثـم...

وهذا ما يستفزني، حتى هذه اللحظة، لماذا نعتبر (في مصر بالذات) أن الحديث عن هذه الأمور نوع من التخريف، دون أن نبذل أدنى جهد للبحث عنه ودراسته؟!

لست أدري!!

ولست أظنني سأدري أبدًا!!

ربما لأنني يئست من تتبع الأمر كله، بعد موت الحاج (حنفي)، مأسوفا على شبابه الغض..

أو ربما لأن قصة عجيبة أخرى قد شغلت انتباهي..

قصة عجل (البوهي)..

ولهذا حديث آخر..



١١) عجـــل البوهـــــيا..

بعض طوائف الهندوس تقدّس البقر!!

من المؤكّد أن معظمكم يعرف هذه الحقيقة، ويعـرف أن أصحاب تلك الطائفة لا يأكلون لحم البقـر، ولا يـستخدمون الأبقار في الزراعة، ولا يعترضون طريقهـا، أو يجبرونهـا على الابتعاد عن طريقهم..

بل ويحترمونهم أيضًا أشد الاحترام..

ولقد قرأت الكثير والكثير عن هذا الأمـر، واسـتنكرته، ورفضته، واستبعدت أن يقدم إنسان عاقل على تقديس حيوان، أيًا كانت نوعيته..

حتى رأيت عجل (البوهي)..

ولقد كان لقاءي الأول بسعـادة عجـل (البـوهي) هـذا دراميًا على نحو مدهش، يصلح كبداية لفيلم بوليـسي، مـن إخراج (إسماعيل ياسـين)، وبطولـة العـسكري (رجـب)، والشاويش (عطية)..

فذات يوم، كنت أؤدّي عملـي فـي الوحـدة الـصحية، والمرضى يدخلـون إلى العيادة بانتظام كالمعتـاد، عنـدما سمعت صوت خوار ضخم، ورأيت رأس ديناصور صعيدي يدخـل إلى العيادة، وبه عينان ضخمتان، تتطلّعان إليّ فـي بلادة وفضول..

في البداية، تصوَّرت أنه حلم، أو كابوس اصطبغ بصبغة الوجه القبلي، ليقتحم منـامي دون اسـتئذان، وفكّـرت فـي استدعاء أحد الخفراء؛ ليهوي على رأسي بشومته؛ حتى أتأكّد أني مستيقظ، ولكنني خشيت أن يؤدي هذا الإجراء إلى نومي للأبد؛ لما يتميز به الإخوة الصعايدة من رقة ولطف، لذا فقـد هتفت مناديًا الديناصور الأكبر..

احم.. أقصد كاتب الوحدة، هاتفًا في استنكار:

- ما هذا يا (حجاج)؟!

مال رأس (حجاج) إلى كتفه كالمعتاد، وهو يجيـب فـي هدوء، وكأنه يصف أمرًا عاديًا:

- إنه عجل (البوهي).

هتفـت:

- عجل من؟!

أجابني بوقار العارف:

– عجل (البوهي) يا دكتور.. ألا تعرف عجل (البوهي)؟!

سؤاله الأخير جعلني أراجع أسماء كل أصدقائي، وزملاء الدراسة، وأعيان البلد وحتى مشاهير الأدب والفن والسياسة، حتى تأكَّدت من أن هذا الباشا العجل لم يكن أحدهم أبدًا، وحتى (البوهي) هذا، لم أسمع به من قبل قط..

لذا، فقد هتفت بكل صرامة:

– ولماذا يترك (البوهي) هذا عجله طليقًا هكذا؟!.. وكيف لم يمنعه أحد من الدخول؟!

ولم أكد ألقي السؤالين، حتى خُيِّل لي أنني أفضل ممثل هزلي في (مصر) كلها، أو أنني المنافس الأوَّل لـ (عزب شو)، و(لوريل وهاردي)، و(شارلي شابلن)، وحتى (توم وجيري)؛ لذا فقد انفجر (حجاج) ضاحكًا، حتى استلقى على قفاه، كما تقول روايات (ألف ليلة وليلة)..

ليس (حجاج) وحده، ولكن عمال الوحدة الصحية، والمرضى، وحتى الحمير.. كلهم انفجروا بالضحك على هذا الطبيب الجاهل الغبي، الذي يدّعي الثقافة والعلم، ثم لا يعرف من هو عجل الباشا (البوهي)؟!

ومرة أخرى، رحت أراجع كل الأسماء في ذهني، وأنا أتطلع إلى وجه العجل، الذي مازال يقف بكل تناحة، ليتطلَّع إليّ بنفس البلادة والفضول، وكأنني أنا الحالة الشاذة، وليس هو..

وعندما توقف الضحك، بعد أسبوعين أو ثلاثة (لست أذكر بالتحديد)، ارتدى السيد (حجاج) ثوب الوقار والحكمة، وراح يشرح لي هوية ذلك العجل التنح الممل، الذي ينسبونه إلى (البوهي)..

وفي البداية، كان لابد أن يخبرني من هو (البوهي) هذا..

فسيدنا (البوهي) كما يطلق عليه أهل (أبو دياب شرق)، هو رجل صالح، لم أجد في البلدة كلها من يعرف أصله أو فصله، أو حتى نوعية صلاحه، ولكن الكل يحكي عنه نفس الكرامات، التي تسمعها عن أي رجل صالح آخر، له أي مقام، في أي مكان في (مصر)، حتى (كفر بلضم)..

المهم أنه رجل صالح والسلام، على مسئولية أهل (أبو دياب شرق).. وهذا الرجل مات، كما يموت كل الصالحين والطالحين، فأقام له بعضهم ضريحًا، فوقه قبة صغيرة، وأطلق عليه اسم (مقام سيدي البوهى)..

إلى هنا والأمر معتاد، ومكرر، ويشبه كل الأمور الأخرى غير المنطقية، في عالمنا العربي كله، من مشرقه إلى مغربه.

ولكن بعضهم تفتق ذهنه عن وسيلة جديدة، لتثبيت كرامات سيدي (البوهى)، في عقول وأذهان الكل، فقرر أنه في كل عام، ينبغي أن ينذر أحد الأثرياء القرية عجلاً، من أفضل ما تنتجه ماشيته، من أجل سيدنا البوهى، وهذا العجل يطلق عليه اسم (عجل البوهى)..

وحتى هذه النقطة أيضًا، تبدو متشابهة مع ما يحدث في أماكن أخرى كثيرًا..

ولكن تعامل الناس مع هذا العجل هو المستفز فعلاً..

فبعد لقاءي العاطفي الأول، مع الباشا التنح.. أقصد الباشا العجل، بدأت أراه في كل مكان، وأشاهد تناحته، ورخامته على الكل، وأشاهد أيضًا - وهو الأمر الذي استفزني بشدة - خضوع الكل الغريب والعجيب له..

فالباشا (عجل البوهي) يجول بمنتهى الحرية، كإمبراطور العجول، فيتلف زرع هذا، أو يقتحم منزل ذاك، أو يضع روثه المقدس في طعام ثالث..

كل هذا والناس سعيدة بما يفعله، وابتسامات الفرحة تملأ وجوههم؛ لأن العجل، الذي أصبح ثورًا ضخمًا عملاقًا، دون أن يتنازل عن لقبه العجلي، يبارك مزارعهم، وحقولهم، ومنازلهم، وطعامهم بتناحته المباركة..

ولقد بلغت حالة الاستفزاز عندي مداها في مرتين..

المرة الأولى عندما أردت السفر إلى مدينة (قنا)، التي تبدو لي أيامها كأكثر بلاد الأرض رقيًا وحضارة، مقارنة بالوحدة الصحية وما حولها، ثم فوجئت بأن العجل المبارك إياه يجلس في منتصف الطريق، بتناحته المقدسة المعهودة، غير مبال بأبواق السيارة أو أنوارها، خاصة وأن سعادته يتميز بالقدرة على التحول إلى أعمى وأصم وأبكم، وعديم الإحساس أيضًا عند اللزوم..

ولقد أردت أن أنزل من السيارة، وأتفاوض مع سيادته بركلة دبلوماسية محترمة، ولكن سائق السيارة وركابها أصروا على العودة إلى القرية، باعتبار أنه مادام سعادة الباشا العجل قد اعترض الطريق، فهذا معناه أن السفر ليس مأمونًا اليوم، ولابد من الرجوع إلى قواعدنا سالمين..

وكدت أشتعل غيظًا، ونحن نعود إلى القرية؛ لأن عجلاً كذا قد تحكم في مصير سبعة من الرجال مفتولي الشوارب (احم.. كنت الوحيد، الذي له شارب غير مفتول)..

وعبثًا، حاولت إقناع الإخوة الصعايدة، بأنه من المستحيل أن يكون العجل قد أكتسب عبقرية خاصة، أو بصيرة مدهشة، لمجرد أنه حمل اسم (البوهي)..

ولكن هيهات!

فالعجيب، ليس في الصعيد وحده، ولكن في وطننا كله، إنه مجرد دس مصطلح الدين، في أمور ليست لها أدنى صلة به، يحول الناس إلى صم بكم عمي، فلا يفقهون، أو يفكرون، أو يتوقفون لحظة لمراجعة صحة ما يحدث، حتى أنهم يتحولون، دون وعى منهم، إلى ما وجدو عليه آبائهم وأجدادهم، حتى ولو كان ما يفعله هؤلاء الآباء والأجداد وثنيًا، أو يخالف كل نصوص وروح الدين نفسه..

وهذه قضية أخرى أكثر ضخامة..

ولكن ما علينا.. فلنعد إلى قصة العجل الباشا، وإلى المرة الثانية، التي استفزتني بشدة..

والمرة الثانية كانت ذات صباح عمل عادى، عندما استيقظت لأؤدي عملي في العيادة، ففوجئت بأن سيادته (العجل طبعًا) لم يجد في البلدة كلها مكانًا لراحته، سوى أمام باب العيادة مباشرة.

والمشهد كله كان مستفزًا، إلى أقصى حد، فقد كان هو يجلس أمام باب العيادة، بتناحته الشهيرة، أدامها الله على كل عجول (البوهى)، ويتطلع في بلادة إلى العاملين بالوحدة الصحية، والمرضى الذين جلسوا في صمت واستسلام، ينتظرون انصرافه، حتى يتم توقيع الكشف على فلذات أكبادهم، الذين يعانون من الحمى، والألم والعذاب..

ولأنني غريب من كوكب بحري، فقد اتجهت نحو العيادة، وأنا أقول في صرامة، للعاملين في الوحدة الصحية:

- شيلوا العجل ده من هنا.

ولم أكد انطقها، حتى خيل إلي أنه كان من الأفضل والأهون، أن أهتف بكل غطرسة:

- ارموا العمدة في الزباله.

فعبارتي الأولى أثارت، موجه عنيفة من الدهشة..

والغضب..

والاستنكار..

والسخط..

والغيظ..

والأخير أصابني وحدي بالطبع، عندما فوجئت بأن الناس تفضل ترك أبنائهم يتعذبون ويتألمون، على أن تمس الباشا العجل، ولو بكلمه تجرح مشاعره الرقيقة، التي أظن أنه حتى الأسياخ المحمية على نار ضخمه، لن تحرك فيها ساكنًا.

وفى هذه المرة عارضت..

واستنكرت..

وصرخت..

وحاولت..

وفى النهاية، أدركت أن مواصله المحاولة قد تعني تطور النقاش إلى الأسلوب الصعيدي، البسيط المباشر، المعروف باسم (شومة)، لأصبح قربانًا لعجل (البوهي).

ولم يرق لي أبدًا تخيل ذلك التنح، وهو يلتهمني مشويًا (والأفضل محمرًا)، لذا فقد انسحبت من النقاش، وصعدت إلى مسكني، أعلى العيادة، في انتظار انصراف الضيف الرخم..

يومها راودني شعور خفي بأنها مسألة عند؛ فقد ظل سيادته جالسًا أمام باب العيادة، حتى يئس المرضى وانصرفوا، وحانت لحظه انصراف العاملين، وبعدما تأكد أنه لم يعد هناك سوانا.. هو، وأنا، وحارس الوحدة، نهض في تثاقل، ورفع عينيه إلي، وهو يطلق خواره البليد الثقيل، الذي بدا لي لحظتها، على الرغم من جهلي للغة العجول، أشبه بضحكة ساخرة..

وأمام بصري وغضبي، ابتعد سيادته بجسمه الضخم، وترك الجمل بما حمل..

وليلتها، سألت حارس الوحدة الصحية بشغف، عن موعد مولد سيدهم البوهى؛ نظرًا لأن غريمي اللدود سيتم ذبحه يومها (ويا للشماتة!) وتوزيع لحمه المر، على الفقراء والمساكين، مثل العمدة، وشيخ البلد، والأعيان.. الخ.. الخ..

وفى البداية، أثلج الحارس صدري، عندما أخبرني أن العجل يذهب وحده إلى مكان المولد، الذي سيحين بعد شهرين، ليتم ذبحه أمام الجميع..

وبدا لي هذا منطقيًا، على الرغم من خزعبليته؛ لأن ضوضاء وهرج المولد سيجذبان حتمًا ذلك الشاب العجلى العابث، الذي اعتاد التجوال حيثما ووقتما يشاء، وسيذهب بحوافره إلى هناك، ليلقى حتفه على يد جزار أعجل منه..

وفكرت لحظتها في حجز مقعد من مقاعد الدرجة الأولى، في حفل الذبح هذا، حتى أخرج لساني للباشا العجل، وسيف الجزار على رقبته، لولا أن أكمل الحارس حديثه، ليصيبني برعب شديد..

فعلى الرغم من أسطورة ذهاب العجل للذبح، والتي صدقتها من منطق لهفتي وشماتتي، إلا أن هذا لا يحدث دومًا؛ فعجل سابق تاه وضل طريقه إلى المولد، وآخر اغتاله مطاريد الجبل الخونة، في ليلة المولد، وأكلوه لحمًا، ثم رموه عظمًا، وثالث اختفى قبل المولد بليلة واحدة، ورابع هرب بجواز سفر زائف إلى البرازيل (وربما مع قرض بملايين الدولارات)..

وتحطم الحلم الجميل..

إذن فهناك احتمال أن يفر الباشا العجل، صديقي اللدود، من الذبح.. مستحيل! مستحيل! مستحيل!

وقضيت ليلتي كلها أفكر في الأمر، وفى أسلوب يدفعه إلى سيف الجزار دفعًا..

ولأن دعوته إلى حفل العشاء في القلعة لم يكن بالفكرة المستساغة، خاصة وأن (محمد على) باشا قد سبقني إليها، فقد استبعدتها، مع كل الأساليب الودية الأخرى، ورحت أفكر في عمليات القتل والاغتيال..

وبالطبع كانت فكرة وضع عقرب سام في الشاي غير عملية..

واستئجار قاتل محترف مغامرة غير مأمونة العواقب..

وكذلك دس الحشيش في زريبته (لأنه بلا زريبة أساسًا)..

وبعد تفكير طويل، واستعراض كل الوسائل والاحتمالات، لم أجد أمامي سوى الصبر، وانتظار مولد سيدهم (البوهى) والسلام..

ومرت الأيام.. ثم جاء المولد..

ولأنني من مواليد (طنطا)، حيث مولد (السيد البدوى)، فقد كانت لدى صورة خاصة عن الموالد، بكل أصواتها، وصخبها، وضجيجها، و....، و...

ولم أجد شيئًا من هذا قط..

فقط بعض النساء، الشبيهات بخيام الجيش، حول المقـــام، وبعض الرجال بشواربهم المفتولة، وجزار ضـــخم ينتظـــر العجل، وهو يحمل سيفًا هائلاً..

ثم لا شيء..

لا أضواء.. أو صخب..

أو أي أمر مثير للانتباه!

واقتنعت يومها بأن عجل البوهي عبقرية فذة بالفعل..

فعلى الرغم من أنه كان يجول دومًـــا هنـــا وهنـــاك، ولا يمضي يومان، دون أن تراه مرة على الأقـــل، فقـــد اختفـــى تمامًا، دون أدنى أثر، طوال يوم المولد..

وانفض المولـــد، باعتبار أن البوهي لا يريد ذبح عجلـــه هذا العـــام..

وعاد الكل إلى منازلهم مبتسمين..

وعدت أنا إلى الوحدة الصحية بكل غيظ الدنيا..

وفي صباح اليوم الثاني، شاهدته يقف في حقـــل صـــغير خلف الوحدة الصحية، ويتطلع إلى النافذة التي أطـــل منهـــا، وهو يلعق شفتيه بلسانه..

ولست أدرى لماذا بدا لي الأمر وكأنـــه يخـــرج لـــسانه، للخاسر في معركة أمس.. أنا طبعًا..

وقبل أن يقتلني الغيظ، فوجئت بمشهد لم أتوقعه قط..

(حجاج) يحمل شومة ضخمة، ويتسلل إلى الحقل الخلفي، الذي يقف به العجل، وهو يتلفت حوله؛ ليتأكد من أن أحدًا لم يلمحه، خاصة وأن خلف الوحدة يطل على الجبل مباشـــرة، وليس على أي بقعة مأهولة..

وعندما تساءلت عما يفعله حجاج، وجدته يرفع الـــشومة، ليهوى بها بكل قوته، على رأس العجل..

وعلى الرغم من العداء المستحكم، بيني وبين ذلك العجل، فقد انتفض جسدي من هول الضربة، وذلك الصوت البـــشع المكتوم، الذي نشأ عنها..

وشعرت بالشفقة على العجل..

والله العظيم شعرت بها..

ولكن أعقبها مزيج من الدهشة والغيظ، لأن العجـــل لـــم يتحـــرك من مكانه، وكأنما كان (حجـــاج) يـــداعب رأســـه بريشة نعام..

فقط أطلق خوارًا تنحنحًا، وتطلع إلــى (حجــاج) بمنتهــى البلادة، ثم استــدار في خمول، وابتعد يهز أردافه الــضخمة في بــطء..

ومنذ هذه اللحظة، وهذا المشهد، رفعت الراية البيــضاء، وقررت الاستسلام تمامًا لقوات الباشا العجل..

صحيح أن علاقتنا الشخصية لم تتحسن، إلا أنني أخرجته من رأسي تمامًا، وقررت تجاهله إلى الأبد..

ولم أنجح تمامًا في هذا، ولكني تظاهرت به، حتى انتهت فترة التكليف، وجمعت كل متعلقاتي، للعودة إلى بلدتي..

وفي يوم السفر النهائي، جاء عجل البوهى يتهادى، وجلس إلى جوار الطريق (وليس في منتــصفه كــالمرة الــسابقة)، وانتظر حتى انطلقت بي السيارة، ثم راح يلعق شفتيه بلسانه!

ألا تعلم (وحياة أبوك) ما الــذي يمكــن أن تعنيــه هــذه الحركــة؟!



١٢
في يوم.. في سنة

١٢) في يـوم.. في سنــة..

من أبرز الفروق، بين الحياة التي نشأت فيها، في بلــدتي الصغيرة، التي تتوسط دلتا (مصر)، والقرية التي عملت فيها كطبيب تكليف، في حضن جبال الصعيد.. الإيقــاع..

فالحياة هنا، في حضن الجبل، تتميز ببطء الإيقــاع، إلــى الحد الذي يمكن أن يصيبك بالجنون، في أيامك الأولى..

والأخيــرة أيضًا..

واختلاف الإيقاع أمر طبيعي، بــين المدينــة والقريــة، فالمدينة مع اتساعها، والنشاط الدائم بها، واخــتلاف وســائل التعامل فيها، تحتاج إلى إيقاع أكثر سرعة، في حين نقتــصر الأعمال والنشاطات، وحتى وسائل الاستمتاع في القرية، على أمور محدودة للغاية، بحيث يبدو اليوم أكثر طولاً، والوقــت أكثر وفرة، مما ينعكس بالطبع على بطء الإيقاع إلى حد ما..

حاول أن تستنتج إذن اختلاف الإيقاع، بين مدينة عاديــة، وقرية في حضن الجبل، في أعماق الصعيد!!

هل نجحت في استنتاج هذا؟!

برافو..أنت مثلي تمامًا..

ساذج، ومتفائل..وعبيط أيضًا..

فعندمــا بدأت عملي، في تلك الوحــدة الصحيــة، فــي (أبو دياب شرق)، تصورت أنني عبقري، وأنني سأســتوعب بسرعة فارق الإيقاع التقليدي، بين المدينة والقرية، باعتباري متعلمًا، ومثقفًا، و....، و....

ولأنني أهلت نفسي لهذا، لم أشعــر بضيق كبير، عنــدما بدأ المرضى يتوافــدون على العيادة، في السادسة صــباحًا، على الرغم من أن مواعيد العمل الرســمية، وحتــى غيــر الرسمية، تبدأ من الثامنة، وأقنعت نفسي بأنهم يرغبون فــي الانتهاء من الكشوف الطبية العاجلة، حتى يتفرغــوا للــزرع والقلع.. وخلافــه..

ثم بدأت أنتبه إلى أمر عجيب..

فكلمة حالة عاجلة، التي نعرفها في المدن،لا شــأن لهــا إطلاقًا بالكلمة نفسها، المعروفة هناك، في حضن الجبل، اللهم إلا إذا اعتبرنا أن استمرار حالة الإسهال عند طفل صــغير،

لمدة شهر ونصف، هي حالة عاجلة، أو عملية إخراج شوكة نخيل من ساق صبية، بعد انغراسها فيها لمدة سنة، هي حالة طوارئ، تستلزم السرعة والهلع..

كل الحالات، التي كنت أفحصها، في السادسة صباحًا، وقبل شروق الشمس أحيانًا، كانت مصابة منذ أسبوع على الأقل، وهذه المدة الأخيرة تعني أن الفزع قد أصابهم، فهرعوا بالحالة إلى الطبيب، بعد أسبوع واحد فحسب..

أما في الحالات العادية، كشج الرأس بالشومة، أو الإصابة بطلق ناري، أو تحطم الأنف، والفك، والأسنان، وغيرها من الأمور اليومية المألوفة هناك، فالحالة يمكن أن تنتظر عامًا أو عامين، أو حتى ينتظرون وفاتها للتأكد، قبل استشارة الطبيب.. ولكنني احتملت هذا أيضًا، وحاولت إيجاد الأعذار لهم..

حتى خرجت لأول كشف خارجي..

فالرجل الذي أتى لاصطحابي، أجابني في بساطة، عندما سألته عن مكان منزله، وهو يشير بيده في هدوء:

- خطوتان من هنا.

ولأنني كنت متخلفًا عقليًا في ذلك الحين، وأصلح كمثال للغر الساذج، فقد صدقته، واعتبرت أن إشارة يده هذه تعني أن المنزل قريب بالفعل، فحملت حقيبة أدواتي، وتبعته لتوقيع الكشف الطبي..

وبعد ما يقرب من الكيلومترات الثلاثة، من السير على الأقدام، على طريق مترب وعر، وستة أو سبعة لترات من العرق، الذي غمرني في مساحة محدودة، لا تتجاوز حجمي كله، من قمة رأسي حتى أخمص قدمي، سألته مرة أخرى:

- أين منزلك يا حاج؟!

وبنفس البساطة والتناحة (أدامها الله عليه)،أشار بيده، مجيبًا:

- خطوتان من هنا.

وعندما تجاوزنا الكيلومتر الخامس، ومع بدء شعوري بالجفاف، من فرط ما أفرزت من عرق، ولما بدأ الكالو يبرز بالفعل، في كل أصابع قدمي، راودني شك في أننا قد ضللنا الطريق، وتجاوزنا حدود (أبو دياب شرق) إلى صحراء النقب على الأقل، فسألت الرجل، وأنا ألهث في صعوبة:

- أين المنزل يا حاج؟!

وكدت أحطم أنفه، وألقيه أرضًا، وأقفز فوقه صارخًا في جنون، عندما أشار بيده، مجيبًا بنفس التناحة إياها:

- خطوتان من هنا.

وكان صادقًا هذه المرة، فالمنزل لم يكن يبعد، عن موقعنا الأخير هذا، سوى كيلومترين فحسب..

تصوروا..

وغني عن الذكر أنني، وعندما وصلنا إلى منزله، كنت في حاجة إلى أسطوانة أكسجين، وخزان مياه، وسيارة إسعاف، تنقلني إلى حجرة العناية المركزة، في أقرب مستشفى في (كوالامبور)، التي تصورت أننا قد وصلنا إليها حتمًا، بعد كل هذا السير على الأقدام..

وبعد أن قام والده بتوقيع الكشف الطبي علي، أقصد بعد أن قمت أنا بتوقيع الكشف الطبي عليه، شعرت بانهيار مسبق؛ لأنني سأضطر إلى قطع طريق العودة مرة أخرى..

ولكنني تعلمت الدرس..

ففي الكشوف الخارجية التالية، كنت مُصر على إحضار وسيلة ركوب..

وكانت الوسيلة الوحيدة المتاحة - طبعًا - هي (اسم الله على مقامك) الحمار..

نعم.. الحمار، ذلك الحيوان المكافح الصبور، الذي تمتطيه، فيسير بك مستسلمًا، تحت القيظ، وفوق الرمال، وهو صامت مستسلم، دون أن يشكو أو يعترض..

لأنه حمار..

ولكم أن تتخيلوا مظهري، بكل رصانتي ووقاري، وأنا أمتطي حمارًا، وإلى جواري يسير صاحب الحالة..

مشهد كنت أراه في أفلام قديمة كثيرة، ولكنني لم أتصور قط أنني سأمر بنفس الموقف.. وبالأبيض والأسود أيضًا..

المؤسف أنني لم أسع أيامها لالتقاط صورة واحدة لي، في هذا الوضع الطريف، حتى يراها أحفادي فيما بعد، عندما أروي لهم كيف كان الدولار أيامها بجنيه واحد، والبيضة بقرش صاغ، فيسألني أحدهم في براءة:

- يعني إيه جنيه يا جدو؟!

ولكن ما علينا.. المهم أنني انتبهت أيامها إلى حقيقة مهمة جدًا، فالإيقاع البطيء هناك كان ينعكس على كل شيء..

حتى الزمن والمقاييس..

فبالنسبة لهم، كانت الساعة أشبه بالدقيقة..

وما يمكنك أن تنجزه في يوم، يستغرق سنة، بالتمام والكمال، باعتبار أنه لا يوجد أدنى داع للعجلة، فاليوم طويل، ولو أنجزت كل أمورك بسرعة، فما الذي ستفعله في باقي اليوم؟!

ثم إنه هناك ذلك المثل الذهبي، الذي نتبناه كلنا تقريبًا..

لماذا نعمل أكثر، مادام من الممكن أن نعمل أقل؟!

أما بالنسبة للمسافات، فحدث ولا حرج، إذ إنك، لو راجعت خريطة (مصر)، ستجد أن كل محافظات وجه بحري محصورة في الربع الأول، وأن المسافات بينهما محدودة إلى حد ما، أما محافظات الصعيد، فهي تمتد بطول النيل، عبر الأرباع الثلاثة الأخرى..

لذا فالمسافات هناك شاسعة للغاية، وهذا ما اعتاده الكل، بحيث أصبحت المسافات، التي نعتبرها كبيرة في وجه بحري، هي مسافات بسيطة، بالنسبة لوجه قبلي..

وعندما نحصل على تأشيرة السفر إلى الصعيد، لا بد أن نعتاد فارق التوقيت وفارق المسافات أيضًا..

وعندما بدأت تعاملاتي هناك، وقبل الحصول على الجنسية، جذبت انتباهي كلمتان، لم أستطع فهم معناهما أو مضمونهما، إلا بعد حين.

الكلمة الأولى، هي كلمة (هبابة)..

التي فهمت فيما بعد أنها تعني الشيء الصغير، سواء أكان هذا الشيء وقتًا أم مسافة، أم كمية..

أما الكلمة الثانية، فهي كلمة (هنية)..

تأكد أنه لا توجد أية أخطاء مطبعية..

الكلمة هي (هنية) بالفعل..

وعلى الرغم من أنني قد فهمت مضمون هذه الكلمة، إلا أنني لم أفهم معناها أبدًا..

وحتى لحظة كتابة هذه السطور..

فالكلمة تستخدم لوصف كل شيء..

وأي شيء..

تمامًا مثل كلمة (voila) الفرنسية، التي يستخدمها الفرنسيون عمال على بطال، إذ تسأل الواحد منهم عن مكان ما، فيشير إليه وهو ينطقها، وتحدثه في أي موضوع عام، فيقلب كفيه ويقولها، وكلما تحدثت مع أي فرنسي، كان لابد أن تسمعها ألف مرة، بألف معنى مختلف..

وهذا بالضبط ما يفعله الصعايدة مع كلمة (هنية) هذه..

تسأل الواحد منهم عن أي شيء، فتسمع الكلمة مائة مرة في الصفيحة..

أو في الدقيقة..

أو أحيانًا في العضم..

وربما كانت أقرب إلى كلمتنا العامية، التي نصف بها أي شيء.. (البتاعة دي)..

والإخوة الصعايدة يرددون كلمة (هنية) هذه ألف مرة، ثم يضحكون من أعماق أعماقهم، عندما يسمعون من أحد البحاروة كلمة (كده)..

فالكلمة غير مألوفة عندهم، وغير مستخدمة على الإطلاق..

رجل المستحيل.. أوراق لم تنشر

وطبيعي أن تشعر بالغيظ، وعندما تنطقها فيسخرون منك، في حين أن نصف كلامهم غير مفهوم أو مألوف بالنسبة لك..

وهناك أمور عديدة غير مألوفة بين الطرفين، البحاروة والصعايدة..

ولكن من المدهش أن ينطبق هذا على الطعام أيضًا.

فذات يوم، كنت أجول في حديقة تخص الشيخ (إبراهيم)، الذي أقيمت الوحدة الصحية على أرضه، فشاهدت كرمة عنب جميلة، كانت أوراقها جميلة نضرة، حتى إنني تساءلت عما إذا كان من الممكن أن أحصل على بعض أوراق العنب..

وفي دهشة بالغة، سألني الشيخ (إبراهيم) عن سبب رغبتي في الحصول على أوراق العنب، ثم تساءل أحد الموجودين عما إذا كنا نربي بعض الماشية في منزلي..

فأجبتهم ببساطة وتلقائية، أنني أرغب في الحصول على أوراق العنب؛ لأننا نصنع منها نوعًا من الطعام..

يسمى (محشي ورق عنب)..

وهنا، فوجئت بالكل ينفجر ضاحكًا، وبعضهم يمسك بطنه، أو ينقلب عن قفاه، كما لو أنني قد أخبرتهم بأحدث نكتة عن الصعايدة..

وعندما تساءلت عن سبب هذا الانفجار العجيب، أجابني أحدهم، من وسط دموعه وضحكاته، أنه لا أحد يأكل أوراق العنب، سوى البهائم أو المواشي..

شوف الذوق واللباقة!

ولأنني أعرف عن الإخوة الصعايدة رقة الحس، وسرعة الفهم، وعبقرية الاستيعاب، فقد تجاوزت هذه النقطة بسرعة، قبل أن أفقد أعصابي، وأقتل أحدهم رميًا بالبُلَغ..

ولكن كان من الطبيعي أن أنفجر غيظًا، بعد أسبوع واحد، عندما دعاني الشيخ (إبراهيم) نفسه، مع نفس شلة الأنس، لتناول الطعام..

ووجدت بينه (محشي ورق خس)..

ثم تلاه شربات الخلّ..

لحظتها عرفت أن العملية كلها خل..

ولكنني لم أتعلَّم بشكل كاف..

فبعد أسبوع واحد، من موقعة (ورق العنب)، كنت أستعد لقضاء الإجازة في بلدتي، وأضع خطة للاستمتاع بتلك الأجازات الطويلة (ستة أيام كل شهرين)، عندما جاء أحد الإخوة لزيارتي، واستنكر قيامي بحجز تذكرة في القطار الفاخر، ثم أخبرني أنه سيسافر بالفعل إلى (القاهرة)، في نفس توقيت سفره، ثم دعاني للركوب في سيارته، وأقسم بالطلاق أن أفعل..

ولأنني - مرة أخرى - ساذج، وعبيط، ومتخلِّفٌ عقليًا، فقد وافقت، باعتبار أن السفر بالسيارة سيوفر الكثير من الوقت الذي يتوقف فيه القطار، لإفساح الطريق أمام القطارات القادمة في الاتجاه العكسي، على الخط المنفرد حينذاك.. ولم أحجز تذكرة القطار بالطبع..

وجاء يوم السفر، وصل الرجل في موعده بالضبط، مع سيارته (البيجو) الكبيرة، التي تتسع لسبعة ركاب، من الناحية الرسمية..

وبكل الحماسة، وضع الرجل حقائبي على شبكة السيارة، وربطها في إحكام، ثم دعاني للجلوس إلى جواره، وانطلق بنا..

وتصوَّرت أنا أننا سننطلق إلى (القاهرة) مباشرة، ولكنه أخبرني أن أثنين من أولاد عمومته ينتظروننا في مدينة (دشنا)؛ ليصحبونا في رحلتنا هذه..

ولم أعترض بالطبع، فالرجل، والحال هكذا، يعتبر قرينًا لـ (حاتم الطائي)، في المروءة والكرم..

ثم وصلنا إلى (قنا)..

وهناك، كشفت أن بطء الإيقاع قد انعكس لديهم على الأرقام أيضًا..

فأولاد عمومته هؤلاء كانوا جيشًا من الصعايدة، هجم على السيارة فور وصولنا، وانتشر داخلها، ووجدت أحدهم يدفعني لألتصق بالسائق، ثم دخل مع اثنين آخرين، إلى المقعد الأمامي، في حين انحشر ما يقرب من العشرين، في المقاعد الخلفية الأخرى..

كل هذا وصاحب السيارة يبتسم، ويوزِّع عبارات الترحاب على أفراد الجيش، ومع كل عبارة سيجارة..

وقبل أن أقفز من السيارة، في محاولة للنجاة بحياتي، انطلق هو بنا، إلى طريق (القاهرة)..

وباستماتة، رحت أقاتل..

وأقاتـل..

وأقاتـل..

فقط لألتقط أنفاسي..

وبصوت متحشرج، أشبه بصوت رجل يحتضر، سألت صاحب السيارة، عما إذا كان ركوب هذا الجيش في السيارة قانونيًا، فأطلق ضحكة عالية، وأكَّد لي أن سيارته تحمل أرقامًا خاصة؛ لأنها ليست سيارة أجرة؛ لذا فهو يستطيع أن يحشر فيها أي عدد يشاء..

وغامت الدنيا أمام عينيّ، وأخ صعيدي رقيق (حوالي مائة وخمسون كيلوجرامًا)، يستقر على صدري، وآخر يضع مرفقه في عيني، وثالث يسعل في قفاي، ورابع يتحدث بصوت أجشّ غليظ، داخل أذني مباشرةً..

هذا وقد تصورت أن الشرطة قد ضبطت ما يحدث، وأنها قد ألقت بعض قنابل الدخان داخل السيارة؛ لتفريق جيش الصعايدة، وميليشياتهم المسلحة، إلا أنني أدركت بعدها، أن سحب الضباب هذه هي دخان سجائرهم، التي تشتعل طوال

الوقت بلا انقطاع، ممتزجًا بغازات أخرى، لا داعــي لــذكر مصدرها هنا..

وحاولت أن أحتمل..

وحاولت..

وحاولت..

وعندما انهارت مقاومتي، سألت سائق الـسيارة بأنفــاس متقطِّعــة:

- هل تبقى الكثير؟!

قهقه الكل ضاحكين، وأجابني أحدهم:

- إننا لم نغادر محافظة (قنا) بعد.

ولن أشرح لكم شعوري لحظتها..

كل ما أذكره الآن، هو أنني قد حاولت الاحتمال، باعتبار أن الوقت سيمضي، إن عاجلاً أو آجلاً، وأنه لا أحد يمــوت من السفــر..

ولكني مع وصولنا إلى حدود محطة (سوهاج)، تغيَّــرت أفكاري تمامًا..

فالمرء يمكن أن يموت من السفر..

ألف مرة..

وفي عقلي، حاولت أن أبحث عن تلك الفوائد السبعة، التي يربطونها في الأمثال بالسفر، ولكنني لم أجد - في وضــعي هذا - ولو فائدة واحدة منها..

وأخيــرًا..

وبعدما بدا لي الوقت أشبه بالدهر، توقفت الــسيارة فــي (سوهاج)، وخرج منها جيش الــصعايدة، لــشرب الشيــشة، وتناول بعض الطعام، وكأنما لم يكفهم كل مــا أراقــوه مــن دخان، خلال رحلة السفر السابقة..

وفي (سوهاج)، رحت أرسم خطة الفرار، متخليًــا عــن حقائبي، وملابسي، وأي شيء آخر، وعندما بدأت في تنفيــذ الخطة، فوجئت بهم يدفعونني مرة أخــرى إلــى الــسيارة؛ لنواصل السفر..

وتكرَّر هذا، في عاصمة كل محافظة نبلغهــا..

وعلى عكس ما تصوَّرت، استغرقت الرحلة بالسيارة، ما يزيد عن رحلة القطار المعتاد، وإن بدا لي هذا أشبه بــدهر

كامل، حتى إنني، وعندما وصلت أخيرًا إلى (القاهرة)، أدركت شعور المغترب الذي يتمنى تقبيل أرض الوطن، عند الوصول إليه..

ولكن اليوم كان مطيرًا، وأرض الوطن كانت موحلة، مما جعلني أؤجّل عملية التقبيل هذه إلى مناسبة أخرى..

أو إلى شيء آخر..

بخلاف أرض الوطن..

واهو كله تقبيل.



١٣) قصـــر الدنــــدراوي..

منذ أيامي الأولى في مدينة (قنا)، وفي أثناء مرحلة استلام العمل، وإنهاء الأوراق الحكومية، وما يستتبعه هذا من انهيارات، وتقطيع شعر، وخلافه، جذب ذلك القصر اهتمامي وانتباهي بشدة..

قصر الدندراوي..

لست ادري متى ولا كيف وقع بصري عليه للمرة الأولى، ولكن ربما عندما بلغ إعجابي بالنظام الإداري منتهاه، فقررت إلقاء نفسي في النيل العظيم، لأصبح بهذا أول عريس نيل في التاريخ..

ولكنني رأيته هناك، عبر النيل، على شاطئ (دندرة)..

و(دندرة) هذه هي أقرب مركز إلى مدينة (قنا)، إذ يفصلها عنها نهر النيل فحسب، ويصلها بها كوبري بسيط، ينقلك إليها في خمس دقائق فحسب سيرًا على الأقدام..

وعند نهاية ذلك الكوبري، تطل عليك شرفة القصر الواسعة، بمقاعدها الكبيرة، وتكعيبة العنب، التي تتلاعب بها نسمات الهواء في مشهد يجعل قلبك يتراقص ويخفق في استمتاع ونشوة..

ومنذ اللحظة الأولى أيضًا، تملكتني رغبة عارمة في الجلوس في تلك الشرفة، وتناول كوب من الشاي (البحراوي) فيها، ولكنني سرعان ما استبعدت الفكرة، باعتبار أنه من الحماقة أن يحلم المرء بما يعجز عن تحقيقه..

ثم انتهت الإجراءات الورقية (أخيرًا)، وانتقلت إلى مرحلة مركز التدريب، التي نسيت فيها كل شيء..

نسيت القصر..

والشرفة..

والشاي..

وحتى اسمي..

ومن حسن حظنا أن قرار الإفراج عنا، من مركز تدريب (قفط)، قد صدر في الوقت المناسب، بحيث لم يصب سوى ستة منا فحسب بحالة التخلف العقلي، واثنان بجوع مزمن، وواحد لم يتم التوصل إلى تشخيص دقيق لحالته بعد..

ولأن ربنا (سبحانه وتعالى) سلم، وكنت أحد الناجين من محرقة مركز التدريب، فقد تم نقلي للعمل في إحدى الوحدات الصحية الريفية - احم.. أقصد الجبلية - كامتداد لبرامج محو المهارات البشرية..

وفي (أبو دياب شرق)، بدأت أسترجع ذاكرتي تدريجيًا، وتذكرت أنني كائن بشري، وطبيب، ولي اسم وعائلة..الخ..

وهذا يؤكد أنه لابد من صدمة، للقضاء على صدمة أخرى..

ولكن ما علينا..

المهم أنني بدأت في وضع برنامج خاص لنفسي، كنوع من مقاومة الظروف المحيطة.. والمحبطة أيضًا (مرة بنقطتين بعد الحاء، ومرة بنقطة واحدة للعلم)..

وكجزء من هذا البرنامج، قررت السفر إلى مدينة (قنا) مساء كل خميس، والعودة إلى الوحدة الصحية في (أبو دياب شرق) مساء الجمعة..

وكان من الطبيعي أن أقضي بعض الوقت، في أثناء رحلة (قنا)، في التطلع عبر نهر النيل إلى شرفة قصر الدندراوي، والحلم بالجلوس فيها، وشرب الشاي أيضًا..

واستمر الحلم لعدة شهور، قبل أن ألتقي بزميلي وصديق عمري، الدكتور (محمد بكر)، الذي كان يعمل أيامها في وحدة جبلية أخرى، في المحافظة نفسها..

وفي مدينة (قنا)، التقينا - (بكر) وأنا - ووقفت أنا عند النيل، مقلدًا الراحل (عبد الحليم حافظ)، في تنهيداته الملتهبة، وأنا أقول:

- آه.. كم أتمنى الجلوس في شرفة ذلك القصر.

وهنا فوجئت بزميلي (محمد بكر) يقول، ببساطته المعهودة:

- فليكن..هيا بنا.

صرخت أخبره أنه مجنون، وأن هذا قصر خاص، ومن المستحيل أن ندخله دون إذن، و...، و...، و...

وضحك (محمد بكر) من أعمق أعماق قلبه، بل أظن أنني قد سمعت صدى لضحكاته، قبل أن يؤكد لي أن قصر (الدندراوي) مفتوح لنا، ولكل خلق الله؛ لأنه - وبكل بساطة - قصر ضيافة بالدرجة الأولى..

وكالمسحور، سرت خلف (محمد بكر)، الذي أتضح أنه خبيث، يعرف الكثير ولا يتحدث عنه (تمامًا مثل أيام

الدراسة)؛ إذ وجدت الكل يعرفه في قصر (الدندراوي)، منذ عبورنا بوابته الخارجية، وسيرنا في حديقته الغناء، تحت تكعيبات العنب الوارفة، وحتى وصلنا إلى القصر نفسه، ودخلناه بكل بساطة، دون أن يعترضنا أحد بحرف واحد..

وكنت أنا مبهورًا بالطبع، وفاغرًا فاهي، كما تقول الكتب القديمة، في حين كان زميلي (محمد بكر) يتصرف ويتحرك ويتعامل، وكأنه في قصر أبيه..

وداخل القصر، جذبت انتباهي بشدة تلك الأرقام، المتناثرة في كل مكان، على الجدران والسقف..

١٢٦٠٧.. ١٣١٤.. ٨٥٥٥.. ٥١٩١٦.. الخ..

أرقام عجيبة..

لا أحد يدري معناها أو مغزاها، أو لماذا نحتها (الدندراوي) باشا، صاحب القصر القديم، على هذا النحو غير المفهوم..

وفي الشرفة، التي طالما حلمت بالجلوس فيها، انشغل ذهني عن مشهد النيل الرائع، وعن الهواء العليل، وحتى عن كوب الشاي، الذي قدمه لي عم (محمد)، حارس القصر، دون

أن أطلبه، بتلك الأرقام، التي تزين الشرفة أيضًا، في كل مكان، وكل زاوية..

أما (محمد بكر)، فلم يشغل هذا ذهنه لحظة واحدة، وهو يجلس في استرخاء، مستمتعًا بالهواء والنسيم، ومرتشفا كوب الشاي في استمتاع، وهو يمد ساقيه أمامه، على سور الشرفة..

وبشيء من الغيظ، سألته:

– ألا تشغل هذه الأرقام اهتمامك أو انتباهك؟!

سألني في هدوء شديد:

– أية أرقام؟!

كدت أصرخ مستنكرًا، وأنا أجيبه:

– هذه الأرقام، المتناثرة في كل مكان.

فتح نصف عينيه في صعوبة، على نحو يوحي بأنه قد بذل جهدًا خارقًا، خاصة وأنه أحد الأعضاء المؤسسين لجمعية الكسل، وألقى نظرة لا مبالية على الأرقام، قبل أن يعود في استرخائه، قائلاً في لا مبالاة:

– وما لنا بها؟!

صرخت هذه المرة:

- من المؤكد أنها لم توضع هنا عشوائيًا.. هناك هدف ما لوجودها حتمًا..

هز كتفيه، بنفس اللامبالاة المستفزة، وهو يقول:

- ربمــا.

قالها، وعاد يرتشف الشاي في هدوء واسـترخاء، وأنـا أنظر إليه في غيظ ليس بعده غيظ، وأتساءل في أعماقي، هل لو ألقيته في النيـل الآن، سيعتبرون هذا نوعًـا مـن القتـل العمد، مع سبق الإصرار والترصد، أم أنــه مجـرد دفـاع شرعي عن النفس..

وكمحاولة أخيرة، أشرت إلى مجموعـة مـن الأرقـام، تزاحمت عند أحد أركان الجدار، وأنا أسأله:

- قل لي: ألا يدفعك هذا إلى التفكير في شيء ما؟!

انعقد حاجباه في اهتمام، واعتدل في مجلسه، وهو يقـول بجديـة:

- بالتأكيـد.

خفق قلبي في قوة، وكدت أقفز مــن الفرحــة، بعـد أن تحركت مشاعره أخيرًا، وسألته في لهفة:

- وفيم تفكر الآن؟!

أجابني بنفس الجدية والاهتمام:

- في أن الأمر يحتاج إلى كوب شاي آخر.

قالها، والتفت ينادي عم (محمد)، لإحضار كـوب شـاي آخر، في حين طلبت أنا منديلاً، لمسح دموعي، التي انهمرت في غزارة، في يأس وقهر..

وبينما استرخى (محمد بكر) في وضع شبه نـائم، علـى نسمات النيل، رحت أنقل الأرقام في حماسـة، فـي ورقـة أحضرها لي عم (محمد)..

وعندما عدت إلى الوحدة الجبلية، رحـت أرص الأرقـام بعضها إلى جوار البعض، وأحاول إيجاد أية علاقـة تـربط بينهما، أو حتى تربطها بآيات القـرآن الكـريم، أو بتـاريخ الفراعنــة..

أو حتى بأغاني (أحمد عدويه)..

وأخيرًا، تأكدت من حقيقة واضحة، جـاءت فـي تراثنـا المصري الصميم..

<< الفاضي يعمل قاضي >>..

إنه الفراغ، الذي جعلني أبذل كل هذا الجهد، في محاولـة لتحليل أرقام، موجودة منذ أكثر من قرن من الزمان، دون أن تشغل اهتمام، أو حتى انتباه أحد..

ثم جاء صديقي الدكتور (محمد حجازي) لزيارتي..

ولأن اهتماماته تقارب اهتماماتي، في هذا المضمار، فقـد أخبرته بأمر أرقام قصر (الدندراوي)، وجلسنا معًا نـضرب أخماسًا في أسداس، ونـرص الأرقـام، ونرتبهـا، ونعـود لنرصها، ونرتبها ألف مرة على الأقل..

وفي كل مرة، كنا نناقش الاحتمالات والارتباطات، قبل أن نقرر معًا أن الأمر يحتاج إلى زيارة أخرى..

إلى قصر (الدندراوي)..

وبالطبع صحبنا صديقنا المشترك، الدكتور (محمد بكـر)، الذي ظل على مبدئه، يرتشف الـشاي، ويـستمتع بالنـسيم،

ويسخر من أصحابه المجانين، الذين يأتون إلى مكان رائـع ساحر كهذا، وينشغلون بأرقام، لن تصل بهم إلى شيء..

وأعترف بأن صديقنا (مجمد بكر) كان قـوي الشخـصية بالفعل؛ فبعد حيص وبيص، وحسابات ومناقشات، انتهى بنـا الأمر - (محمد حجازي) وأنا - إلى مد سيقاننا على سـور الشرفة، وارتشاف الشاي، ومراقبة انعكاس الـشمس علـى سطح النيل، ولتذهب كل أرقام الدنيا إلى الجحيم..

ولكن هيهـات..

فور عودتنا إلى الوحدة الصحية، عاودتنا حالـة التخلـف العقلي والرقمي، وعدنا نرص الأرقام، وندرسها، و....، و... وبال بلى بلو بأ بأ بأ..

وسافر (محمد حجازي)، بعد انتهاء إجازته القصيرة..

وأنهى (محمد بكر) عمله في المحافظة، ليتـسلم وظيفتـه الجامعيـة..

وبقيت أنا وحدي..

وقصر (الدندراوي)..

وألف ألف سؤال حائر..

أرقام.. وأرقام.. وأرقام..

قضيت معها أيامًا وأسابيع، وشهورًا، في زمن كان الكمبيوتر فيه مجرد خيال علمي جامح..

حاولت، وحاولت، وحاولت، ووضعت عشرات الاحتمالات والافتراضات، والحلول، و....

وأخيرًا، انتهى بي الحال إلى مقعد في شرفة الوحدة الصحية، وساقان ممدودتان على سور الشرفة، وكوب شاي أرتشف منه في بطء واسترخاء، وأنا أغمغم:

– آه.. بركاتك يا (محمد بكر)..

ولأن كل المحاولات العلمية والمنطقية لم تصل بي إلى حل، ذهبت في عطلة نهاية الأسبوع إلى (قنا)، وابتعت كشكولاً بسيطًا، وقلمًا من أقلام الحبر، وزجاجة حبر أسود، وبدأت أكتب قصة قصر (الدندراوي)..

ودون أن أدري، وجدت نفسي أغوص في أعماق قصة خيالية، حول ذلك القصر، الذي أدار عقلي، وحرق دمي وأعصابي، لعدة أشهر طويلة..

قصة حملت اسم (سر القصر)..

ولم أدر لحظتها، بل ولم يخطر ببالي لحظة واحدة يومها، أن تلك القصة سترى النور يومًا، في سلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠) نفسها، بنفس الاسم، بعد عدة سنوات..

ولكن المهم أنني قررت ألا أذهب مرة أخرى إلى قصر (الدندراوي)، الذي لم أستمتع مرّة واحدة بشرب الشاي في شرفته الواسعة الجميلة، المطلة على نيل (مصر) الساحر..

ربما كمحاولة للحفاظ على ما تبقى من عقلي وأعصابي..

وانتهت فترة التكليف في (قنا)..

وانتقلت إلى ريف الغربية..

وتركت قصر الدندراوي خلفي، بكل أرقامه، وأسراره، وعجائبه، و....

وحرق الدم الكامن فيه..

وحتى لحظة كتابة هذه السطور، ما زال القصر يقفز إلى زهني، كل حين وآخر، مع أرقامه، وشرفته المطلة على النيل..

وما زلت أتمنى أحيانًا العودة إليه، والجلوس في شرفته والاستمتاع بارتشاف كوب الشاي الساخن فيها..

لو لا مشكلة واحـــدة..

ففي كل مرة أستعيد فيها ذكريات قصر (الدندراوي)، تقفز إلى زهني صورة واحدة، تسيطر على كياني كله، وتهـيمن على أفكاري كلها..

صورة (محمد بكر)...



١٤) نقطـــة التحـــول..

فجأة، وبدون مقدمات، وجـدت نفـسي أشـعر بالتعـب والإرهاق، وأعاني التوتر والشعور بالغربة، وذلك المـرض، الذي لم أجد له علاجًا قط، على الرغم من أسفاري المتعددة، والمعروف باسم (الحنين إلى الوطن)..

والوطن هنا كان بلاد بحري بالطبع..

لم يكن هناك أي شيء قـد تغيـر أو تبـدل، فـالأمور، والأحـداث، والتقاليد، والعـادات، وحتى المناظر والمشاهد، لا تتغير أبدًا (والعياذ بالله)، في تلك المنتجعـات الـصعيدية الجبلية الفاخرة..

الوجوه هي الوجوه، والأحداث يشبـه بعضها الـبعض، وما تراه اليوم لن يختلف كثيرًا عما رأيته أمس، وعما ستراه في الغـد..

وما دام كل شيء على حاله، وكل شخص في مكانه، وكل جاموسة في غيطها، وكل حمار في زريبته، وكل شيء تمام

يا فندم، وليس في الإمكان أبدع مما كـان، فهـذا يعنـي أن التغيير قد أصاب شيئًا واحدًا..

أنـــا..

أنا تغيرت حتمًا، ولم اعد احتمل مواصلة هذا النوع مـن الحياة، الذي يختلف كثيرًا عما ألفته أو أطمح إليـه، خاصـة وأنني، وخلال العام الأخير بالتحديد، كنت قد اعتدت الذهاب إلى مدينه (قنا)، مرة كل أسبوعين، وأنا أحمل حقيبة فارغة، سرعان ما تمتلئ بعشرات الكتب، التي اشـتريها مـن (دار المعارف) هناك، لأعود بها إلى (أبو دياب شـرق)، حيـث أغرق في القراءة بكل النهم، ملتهمًا كل هـذه الكتـب، فـي شراسة لم أعهدها في نفسي من قبل، حتى تنتهـي الكتـب، ويمضي الوقت، فأعود مرة أخرى إلى دار معارف (قنا)..

وهكـذا..

أيامها، قرأت كل مؤلفات (نجيب محفـوظ)، و(يوسـف إدريس)، و(يوسف السباعي)، و(توفيق الحكـيم)، و(إحـسان عبد القدوس)، و(عبد الحميد جودة الـسحار)، و(مـصطفي محمود)، والدكتور(عبد المحسن صالح)، و(ديستويفـسكي)، و(مكسيم جوركي) وغيرهم، بالإضافة إلى عدد مدهش مـن

الكتب التي تحكي تاريخ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، ونشأة الصهيونية ودولة (إسرائيل)، ومذكرات القادة، ورجال السياسة والعسكرية..

وفي كل إجازة، كانت الكتب التي أعود بها من (طنطا) تثير دهشة الجميع، وأصبح من المعتاد أن أسمع سؤالاً واحدًا، بلهجة تجمع بين الدهشة، والاستنكار، وعدم التصديق:

- هل قرأت كل هذا؟!

ولم يكن أحدهم يتصور، أو يتخيل، مقدار ما يمكن أن يلتهمه دودة كتب مثلي، في مكان منعزل، ليس فيه راديو أو تلفزيون، أو شخص يمكنني الاستمتاع بالتحدث إليه، أو محاورته..

اللهم إلا إذا تحاورنا حول المتغيرات السياسية في نجع الهوارة، أو مشروع تعويم عملة (أبو دياب)، في احد فروع النيل القريبة..

وعلى كل حال، لم أحاول أبدًا شرح الأسباب والمبررات، التي جعلتني أقرأ كل هذا الكم، الذي يحتل حقيبتين كبيرتين، أعود بهما إلى بلدتي كل شهرين، وإنما منحت كل

من سألني جوابًا مستفيضًا، واضحًا، مقنعًا، كافيًا، وأنا أجيب في حزم:

- أيوه.

ومن الواضح أن هذا كان يشرح الموقف كله، لأن أحدًا لم يسألني بعدها عما يمكن أن يعنيه هذا..

أما أنا، فكأن هذا يعنيني..

وبشدة..

القراءة المتواصلة بدأت تحفر في أعماقي قنوات عديدة، لا نجد مصبًا لها، في أرض الصعيد، وبالذات في حضن الجبل..

وكان من الضروري أن أجد مصبات لقنوات أفكاري..

ولسبب ما، مازلت أجهله حتى هذه اللحظة، أو ربما لأن القدر كأن يدخر لي مستقبلاً مختلفًا، بدا لي أنني لن أجد هذه القنوات إلا في بلدتي الأم، ومسقط رأسي (طنطا)..

وفي كل يوم يمضي، كانت الفكرة تتعمق في رأسي أكثر وأكثر، وتختمر على نحو واضح، حتى أنك لو وضعت

رأسي في الفرن – أيامها – لخرجت أشبه بالرغيف البلـدي القديم (الذي لم يره أحدكم حتمًا، إلا في كتب التاريخ بالطبع) من كثرة ما به من خميرة الأفكار..

ولكن ما حسم الأمر بالفعل، وما وضع لمسه النهايـة، وجعلني أتخذ القرار النهائي، في حتمية ترك الصعيد، الـذي قضيت في حضن جباله ثمانية عشر شهرًا، هو موقعة حربية صعيدية، أطلقت عليها أيامها اسم (موقعة الدرباس).. نعـم.. (الدرباس).. أنك لم تخطئ قراءة الاسم..

ولكن مهلاً، حذار أن تفعل مثلي، وأن تترك فكك الـسفلي يتدلى في بلاهــة، وأنت تتساءل بنفس العبط، الذي تـساءلت أنا بــه:

– إيه (الدرباس) ده؟!

فذات يوم، وبينما أنهي عملي في الوحدة الصحية، فوجئت بعدد ضخم من الجرحى والمصابين، يرد إلى المكان، والدماء تسيل من الرءوس والأكتاف، والأذرع والسيقان..

كما لو أن قنبلة عنقوديــة قد انفجرت، وسط حـشد مـن البشر هنــاك..

وبمنتهى الجزع (العبيط أيضًا)، هتفت:

– ماذا حدث؟!

أجابني أحد المصابين لجيش الجرحى هذا:

– أنها معركة حول (درباس).

نطقها باعتبار أن (الدرباس) هذا شيء شائع ومعـروف، حتى أنني شعرت بأنه من العار أن اسأل عن ماهيـة هـذا الشيء الفتاك، الذي انجلت المعركة حوله عـن جـيش مـن الجرحى والمصابين، مع احتمال وجود قتلى حتمًا، مما يؤكد أن هذا (الدرباس) هو في حقيقته أحد أسلحة الدمار الـشامل، التي من حسن الحظ أن (أمريكا) لم تسمع عنها، وإلا لجاءت بجيوشها، واحتلت الصعيد كله أيامها..

المهم أنني لحظتها ألقيت التساؤل حول (الدرباس) الرهيب هذا خلف ظهري، وأنا أشمر أكمامي، والتقط خيوط الجراحة، وأبدأ عملي..

لست أذكر بالتحديد كم غرزة جراحية قمت بها، في ذلـك اليوم، ولكنها بدت لي لحظتها أكثر من ألف واحدة، ثمـانون في المائة منها تمت بعد نفاذ البنج الجراحي تمامًـا، دون أن

تبدو لمحة واحدة من الألم، على وجوه الجرحى، حتى تصورت لبعض الوقت أنني أخيط بعض الرتوق في سجاد قديم، وليس بعض الجروح، في رءوس وأجساد حية..

واستغرق ترميم أثر موقعة (الدرباس) الرهيبة أكثر من ثلاث ساعات كاملة، ولم يعد بالوحدة الصحية أدنى أثر للقطن أو الشاش، أو حقنه مصل تيتانوس واحدة (هذا لو أن التيتانوس يجرؤ على إصابة الأخوة الصعايدة هناك)..

وغادر أخر مصاب الوحدة الصحية، بعد أن تصورت أنني سألفظ أنفاسي الأخيرة هناك، وأصبح أول طبيب يحمل لقب (شهيد الدرباس)..

وبابتسامة ذئبية بريئة، جاء كاتب الوحدة الصحية (حجاج) يقول:

- يوم مرهق..أليس كذلك؟!

كان يحمل في يده دفتر الوفيات، فبدا لي وكأنه ينتظر سقوطي، ليدون اسمي فيه، إلا أنه قال في هدوء، كعادته كلما استعد للقيام بعملية نصب متقنة:

- لدي شهادتا وفاة، تحتاجان إلى توقيعك.

سألته في حذر:

- أهما قتيلان موقعة (الدرباس)؟!

فوجئت به يقهقه ضاحكًا، وكأنما سمع نكتة جديدة متقنة، قبل أن يقول، وكأنه يتحدث إلى تلميذ في (K.G.1)، في مدرسة الصعيد للمعتوهين:

- معارك (الدرباس) تحدث كل يوم، ولم يسقط فيها قتيل واحد، منذ نشأ الصعيد.

وهنا وجدت فرص نادرة؛ لأسأله في لهفة:

- إيه (الدرباس) ده؟!

وهنا، فاجأني (حجاج) بأن (الدرباس) ليس أحد أسلحة الدمار الشامل، أو حتى غير شامل، بل هو مجرد حاجز من التراب..

نعم يا صديقي المندهش..

(الدرباس) الخطير هذا، والذي نشبت حوله تلك المعركة الطاحنة، مجرد حاجز من التراب، لا يزيد ارتفاعه عن عشرة سنتيمترات، يفصل كل قطعة أرض عن الأخرى، في الرقعة الزراعية للبلدة كلها..

ومعركة ذلك اليوم نشأت من أن أحدهم قد داس ذاك (الدرباس) المقدس بقدمه، فصنع فيه فتحه بعرض القدم، أي لا تزيد أيضًا على العشرة سنتيمترات (بمقياس أقدامنا)، أو متر وربع المتر (بمقياس أقدامهم)..

ودون مناقشه، أو عتاب، أو حتى شجار، رفع صاحب (الدرباس) المنتهك شومتة الصعيدية، التي تزدان مقدمتها بقطع من الحديد، وهوى بها على رأس المعتدي الآثم..

ولأن القاعدة في الصعيد الجواني هي أن من يرشهم بالماء يرشونه بالشومة؛ حتى يتفجر منه الدم، فقد أندفع شقيق المصاب، وهوى على راس صاحب (الدرباس) بشومته..

وهنا، أسرع ابن صاحب (الدرباس)، وهوى بشومته على رأس شقيق المعتدي..

وهكذا..

شومه من هنا، وشومه من هناك، وتفجرت الدماء من كل مكان..

وحدثت الموقعة..

موقعة (الدرباس)..

كل هذا، بدلاً من أن يعيد أحدهم التراب إلى مكانه، وينتهي الأمر في ثوان معدودة..

ولكن من يهتم..

الشومه دائمًا أسرع من اللسان..

وأكثر حسمًا أيضًا..

وفي تلك ألليله، وعلى الرغم من كل ما أشعر به من تعب وإرهاق، لم يغمض لي جفن أبدًا..

كأن ذهني يدرس ذلك الفارق الجوهري الأساسي، بين العقل والشومة.. وليلتها، ربط ذهني بين كلمة (درباس)، وكلمة (ترباس)، ولن أخبركم لماذا (افهموها أنتم)..

وفي الصباح الباكر، انطلقت إلى مديرية الشئون الصحية في (قنا)، وقدمت طلب نقل إلى ريف (الغربية)..

وفور عودتي إلى الوحدة الصحية، في (أبو دياب شرق)، بدأت استعد للعودة إلى بلدتي (طنطا)..

جمعت كل الكتب في حقيبتين، وكل الملابس، إلا ما يكفي لفترة الانتظار، ما بين تقديم الطلب، وصدور القرار..

وعلى الرغم من الصداقات التي عقدتها هناك، بدت لـي الأيام المتبقيـة أشبه بدهر بلا نهايـة، وأصـبحت الثـواني تمضي كالدقائق، والدقائق تسير كالـساعـات، والـساعات تبطئ كالأيام..

أما الأيام نفسها، فبدت أشبه بالسنوات..

وربما السنوات الضوئية أيضًا..

وحتى تمضي الأيام الصعبة، قررت أن أقـضي معظـم وقتي في أكثر مكان أشعر فيه بالبهجة، في (أبو دياب شرق)، نظرًا لصعوبة الانتقال اليومي إلى (أبو دياب غرب)، حيـث أصدقائي الحقيقيين (عبد العليم)، و(كمال)، و(أبو الحـسن)، وغيرهـم..

وكان هذا المكان هو مندرة عم (علي)..

وعم (علي) هذا رجل بدين، خفيف الظل، متفتح العقل إلى حد مدهش، ويعشق الحياة إلى درجة لم أر لها مثيلاً، سـواء في الصعيد، أو حتى في وجه بحري..

وعلى الرغم من أن عم (علي) كان من كبـار الهـوارة، وأكثرهم سطوة وثراء، فقد تزوج فتاة من العـرب، وأنـشأ

منزلة في منتصف المسافة، بين نجع الهورة ونجع العـرب، وكأنما يعلن بهذا أنه صاحب فكر وسط بين العقلـين، كمـا صمم بيته بأسلوب مدني، أكثر من قروي..

وكان الوحيد، في القرية كلها، الذي يمتلك سيارة خاصة، وكانت هذه حالة فريدة أيامها بالفعل..

وطوال الوقت لم يكن عم (علي) يتحدث إلا عن أمريـن، لا ثالث لهما..

الطعـام..

والنسـاء..

وكان مغرمًا بالأمرين إلى حد مدهش ومضحك، ويعلـن هذا دون انقطاع، باعتبار أن هذه هي كل معاني الحياة، مـن وجهة نظره..

ومن المصادفات المدهشة، أن رقم لوحات سيارته الخاصة كان (ستة آلاف وستمائة وستة وستين).. أي أربع ستات، كما يحلو له أن ينطقها..

ولقد استقبلني عم (علي) في منزلـه بترحـاب واضـح، وحرارة لا مثيل لها، واستمع إليّ جيدًا، وأنا أخبره عن سبب

رغبتي في ترك الصعيد كله، ثم أيد وجهة نظري، وأخبرني أن هذا أمر طبيعي، وأن ما يحدث هو نقطة تحول رئيسية في حياتي كلها..

ثم أصر على أن أصبح ضيفا يوميًا على مائدته، خـلال الفترة المتبقية لي، في قرية (أبو دياب شرق)..

وخلال الأيام التالية..

كانت في انتظاري مفاجأة مدهشة..

فعم (علي)، على الرغم من تعليمه المحدود جدًا، رجـل مفكر وفيلسوف، إلى أقصى درجة..

وكانت له فلـسفته الخاصـة، وآراؤه الحـرة المتقدمـة، ونظرياته الثورية، حـول..

علاقة الهوارة بالعرب..

وحتمية نبذ الخلافات (السامية) بينهما..

وعقم فكرة التزاوج بين أسرهما..

وانبهرت أنا بكل ما اسمعه منه، وأدركت أن أحاديثه عن النساء والطعام، كانت لثقته في أن أحدًا لن يفهمه..

فالرجل كان بالفعل يسبق زمنه بعدة أعوام، وهذا ما جعله يعزل نفسه عن أقرانه من الهوارة..

وكنت افرغ معه بعض قنوات فكري، وأندم علـى عـدم الاقتراب منه، طوال عام ونصف العام، و...

وفجـأة..

وبعد أن بدأت استقر - لأول مرة - في (أبو دياب شرق)، وصل قرار النقل..

وكانت هذه نقطة تحول.. في مسار حياتي العلمية...

بل وفي مسار حياتي كلها.

١٥

الفصل الأول والأخير..

١٥) الفصل الأول.. والأخير..

من المؤكّد أن فترة الصعيد كانت مثمرة للغاية فى حياتى؛ ففيها وضعت الخطوط العريضة الأولـــى لشخـــصيات أهـــم سلسلتين، تشرّفت بتقديمهما للقارئ العربى....

ملف المستقبل..

ورجل المستحيل...

ولكن أخيرًا، وصل قرار النقل..

نقلي من ريف (قنا)، إلى ريف محافظتي (الغربية)..

لا يمكنني أن أصف الآن تلك المشاعر المتناقضة العجيبة، التي ملأت كياني كله، مع وصـــول القـــرار، بعـــد طـــول انتظار، ولكن من المؤكد أنها كانت تتـــراوح بـــين الفـــرح؛ لانتهاء فترة الغربة، والحزن؛ لمفارقة كـــل مـــن صـــادقتهم وارتبطت بهم هناك..

في حضن الجبـــل..

وفجـــأة..

وعلى عكس كل ما تصورته، وجدت نفسي أشعر باشتياق مسبق لكل ما يحيط بي..

اشتياق للريف، والبشر، والجبل..

وحتى عجل البوهي الضخم..

وفجأة أيضًا، وجدت نفسي انهمك في لقاء كل الأصـــدقاء هناك، وفي زيارة كل مكان عرفته، في الصعيد الجواني..

كنت كالمهاجر، الذي تنتابه رغبة عارمة، في التزود بكل ما يحب من تراب وطنه، قبل أن يفارقه، ويرحل بعيدًا عنه..

وبعيد هنا كلمة مضحكة بحق، فمحافظة (قنا) ليست فـــي آخر العالم، وإنما تبعد بضع مئات الكيلومترات فحسب..

ولكنه شعور الغربة..

كل الغربـــة..

المهم أنني قاومت باستماتة ذلك الشعور، بأن (أبو ديـــاب شرق) هي وطني الثاني، وفكرت في عمل بعـــض التحاليـــل الطبية؛ لأتأكد من أن الفيروس (الأبوديابي) لم يتـــسلل إلـــى

مجرى دمي بالفعل، وإلا لأصبحت أول بحراوي صعيدي في التاريخ، وقررت أن أتم إجراءاتي بأسرع ما يمكـن، حتـى أبتعد بسرعة عن تراب (أبو دياب شرق)، قبل أن أجد نفسي فجأة متمرغا فيه، ومتشبثا به..

وفي اليوم التالي، سافرت إلى مدينة (قنا)، وبـدأت فـي إنهاء إجراءات النقل.

ولأننا في (مصر)، بلد التعقيدات الإدارية، التي تكاد تثبت أن قدماء المصريين هم أول من كشف البيروقراطية، كان من الطبيعي أن أجد أمامي عدة عقبات، في سبيل إخلاء الطرف، وكأنني أهم طبيب في الصعيد كله..

ومحافظة (قنا) كلها تتشبث بوجودي، وتتمنى أن أظل فيها إلى الأبـد..

وفجـأة..

ظهـرت تحقيقات لم تكتمل، وأوراقا لم توقع، وصيدليـة لا يوجد متفرغ لعمـل الجرد اللازم لها، لإنهـاء عمليـات التسليم والتسلـم..

و......، و.........

وفي صبر، رحت أنهي الإجراءات، وأطـارد مـوظفي الشئون القانونيـة؛ لإقناعهم باستكمال التحقيقـات، التـي لا أدري متى بدأت، أو لماذا نشأت من الأساس، دون أن أعلـم عنها شيئـا..

ومن كثرة ما واجهته من تحقيقات مرهقة، راودني شعور بأنني (خط الصعيد)، وهو مجرم عريق، كانت له شنة ورنة فيما مضى، وحولته الصحف إلى أسطورة إجرامية صعيدية..

وتصورت نفسي أحمل مدفعًا آليًا، و(ألبد) وسـط حقـول الذرة، لأطلق النار على موظفي الشئون القانونية، واحدًا بعد الآخر، ثم أتحول بعدها أنا أيضًا، إلى أسـطورة إجراميـة، بحراوية، صعيدية، خنفشارية، بسبب كومة من التحقيقـات، انتهت كلها إلى لا شيء، وإلى إثبات أنه لم يكن هناك مبـرر لإجرائها من الأساس!!

ولكن ربنا - سبحانه وتعالى - ستر، وانتهت التحقيقـات كلها إلى الحفظ، قبل أن أسـتبدل بثيـابي طاقيـة وجلبابـا، وبمسمـاعي الطبي مدفعًا آليًا سريع الطلقات..

وأغير أسمي إلى (الخُـط)..

وبقيت مشكلة عهـدة الأدويــة، وضـرورة أن يتـسلمها شخص ما، حتى يمكنني إخــلاء طرفي، والواقع أنــه مــع الجهد الرهيب الذي بذلته، حتى يتم إخــلاء طرفــي، كـدت أتصور أن الطرف المطلوب إخلائه هو مجرد ذيل، ولـيس طرفًا أدميًا أساسيًا..

وبعد أن انتابني اليأس، فاجأت الطبيـب، الـذي سـيحل محلي، في وحدة (أبو دياب شرق)، بزيارة صـباحية، فـي المركز الطبي في مدينة (قنا)، وأيقظته من نومه، وطلبت منه أن يتسلم العهدة، حتى يمكنني الفرار..

احم.. أقصد إخلاء الطـرف (الذي تبين أنه ليس ذيـلاً، كما خُيل إليّ).

ووافق الطبيب الشاب، في سـهولة أدهـشتني، بعـد أن اعتدت من كل شخص وكل جهة تحويل السهل إلى صـعب، واليسير إلى عسير.

وافق، ووقع محضر التسليم والتسلّم، دون حتى أن يتأكـد من صحة ما به، كما لو أن كل ما كــان يفكر فيه لحظتهــا هو أن يعود إلى النوم، وأن أغور أنا من وجهــه فــي تلـك الساعة المبكرة..

ولأنني ما زلت أحمل بعض الدم في عروقي، فقد اكتفيت بتوقيعه، وتركته يعود إلى النوم، وطرت أنــا إلــى مديريــة الشئون الصحية؛ لإنهاء إجراءات إخلاء الطرف..

وبهذا الإجراء الأخير، حدثت المعجزة، وأنهيت المطلوب، وحصلت على إخلاء الطرف، الذي يحوى في نهايته، ككـل الأوراق الحكومية، تحذيرًا يؤكد أنه ليس نهائيًا، وأنه لو تـم كشف شيء، أي شيء، في غضون الألـف سـنة التاليـة، فسيعتبر لاغيًا، ولا قيمة له..

حتى لحامله..

ومع إخلاء الطرف، الذي أعاد لي القدرة علـى اللعـب بذيلي، حصلت على خطاب من مديريــة الــشئون الــصحية بمحافظة (قنا)، إلى مديريــة الــشئون الــصحية بمحافظــة (الغربية)، يؤكد فيه أنني منقول وظيفيًا، مــن الأولــى إلــى الثانيــة..

وفي تلك الليلة..

سهرت مع كل الأصدقاء القدامى، وأقمنا احتفالاً صــعيديًا أصيلاً، امتلأت خلاله معدتي بالبط المحمر، والإوز المشمر، والويكة والملوخية بالطبع..

وفي الصباح التالي، حملتني سيارة الأسطى (عبد الله) إلى مدينة (قنا)، مع ثلاث حقائب، تحوي كل ما يخصني، ومنها حقيبة كتب بالطبع..

وعند رصيف المحطـة، ودعنـي (عبـد الله)، وركـاب سيارته، وساعدوني على حمل الحقائب إلى المقهى الـصغير هناك، لأجلس في انتظار القطار، و......

وفجـأة..

وجدت أمامي مفاجأة..

(حجاج) شخصيًا، جاء ليودعني، أو ليطمئن بنفسه علـى أنني سأعود بالفعل إلى (طنطا)، وسيتوقف الـصراع بينـي وبينه نهائيًا..

والمدهش أن (حجاج) كان يومها مثالاً للـشهامة والكـرم والجدعنة، وهو يصر على دعوتي على كوب مـن الـشاي، وعدد من السندوتشات الطازجة..

ثم جلس يتحدث معي كصديقين عزيزين، حتـى وصـل القطار، فحمل الحقائب بنفسه إليه، وعانقني في حرارة، وهو يؤكد لي أنه لن ينسى فترة عملنا معًا أبدًا..

وفي القطار، استرخيت فـي مقعـدي، ورحـت أراجـع الموقف كله، وأنا أتساءل:

أين وضع (حجاج) جرعه السم بالضبط؟! في الـشاي، أم في السندوتشات؟!

ولكن يبدو أنه لم يضعه في هذا أو ذاك، فقد ظلت معدتي عادية، باستثناء الانتفاخ الذي تـصنعه سندوتـشات الفـول بالطبع، ولم تتأثر حالتي الصحية العامة، مما جعلني أقتنع بان (حجاج) كان مخلصًا في وداعه لي..

وأنه قد استخدم نوعًا من السموم الهندية، بطيئة المفعول!

والعجيب أنني، ولأول مرة في حياتي، غفوت في مكـان متحرك، واستغرقت في نوم عميق، على ذلك المقعد الوثير، في قطار الدرجة الأولى، ولم أستيقظ، أو اشـعر بـالطريق، الذي قطعته وتعذبت فيه عشرات المـرات، حتـى أيقظنـي أحدهم في محطة (القاهرة)، وهو يقول في ضجر:

- (مصر) يا أستاذ.. صح النوم.

نطقها، وكأنه يقول في أعماقه:

- (عالم جبلات.. أنا عارف أزاي بيجـيلهم نـوم فـي القطـر؟!!)

واستيقظت، وتثاءبت، ونهضت في تكاسل ألذ من العسل، وحملت حقائبي، مستمتعًا بالنوم، لأول وآخر مرة، في وسيلة سفر، وغادرت رصيف (القاهرة)، لأحجز تذكرة في قطـار (طنطا)، وأجلس في انتظار القطار..

الذي سيحملني إلى مدينتي أخيرًا..

وفي (طنطا)، شعرت بالحرية والأمان والألفة، وأسرعت إلى نادي الأطباء؛ لمقابلة الزملاء والأصدقاء، متـصورًا أن رحلة الغربة قد انتهت، وأنني قد بدأت مرحلة الاستقرار، في محافظتي (الغربية)..

ولكننا في (مصر)..

والجملة الاعتراضية السابقة قد لا تعنى شيئًا، أو قد تعنى كـل شيء..

وهذا يتوقف على عدة عوامل، أهمها موقعك في المجتمع، ومقدار تفاعلك معه، وما إذا كنت مستيقظًا، أم غائبًـا عـن الوعي..

ففي مديرية الشئون الصحية بمدينة (طنطا)، وبعد توزيعي على وحدة صحية ريفية أخرى، في (قرية سـجين الكـوم)،

التابعة لمركز (قطور)، فوجئت بأن خطاب استلام العمل يفيد بأنني منتدب للغربية، ولست منقولاً، كما يقول الخطاب، الذي أتيت به من محافظة (قنا)..

ولأنني ســاذج وعبيط، ولــدي فتــرة خدمــة صــعيدية محترمة، تعاملت مع الأمر ببــساطــة، واعتبرتهــا مجــرد مشكلة إدارية بسيطة، لن تلبث أن تجد طريقها إلى الحل، إن عاجلاً أو آجلاً..

وكما يقولون: نمت في العسل نومًا..

حتى جاء أول الشهر..

وبنفس السذاجة والعبط، وقفت في طابور الرواتب، فــي انتظار راتبي، الذي لم أعد أمتلك سواه، في تلـك المرحلــة، التي حمــل فيها إصبعي دبلة الخطبة، وحمــل فيها رأســي ألف هم وهم، لمطالب لابد أن تتحقق، حتى تتحول الخطبــة إلى زواج..

ثم جاء دوري..

ابتسم كاتب الوحدة الصحية في (سـجين الكـوم)، وهـو يخبرني بكل بساطة انه لا يوجد راتب لي!!

وبكل ذعر الدنيا، صرخت:

- يا نهار مش فايت! طب ليه.

وبابتسامه حملت شيئًا من السخرية والشماتة، أخبرني الكاتب إنني منتدب، ولست منقولاً، وهذا يعني أنه ينبغي أن أصرف راتبي من محافظة (قنا)، وليس من (الغربية)..

وحتى بعد هذا، تصورت أن المشكلة لها حل (شوف السذاجة)، ولكن محافظة (قنا) تمسكت بأنني منقول إلى (الغربية)، ولست منتدبًا، وأن (الغربية) هي المسئولة عن صرف راتبي..

ورحت أنا اجري بين (قنا) و(الغربية)، في محاولة لصرف راتبي..

ولكن هيهات..

ألم اقل: إننا في (مصر)!!

ومع إرهاقي، ويأسي من الحصول على راتبي، الضائع بين محافظتين، يفصل بينهما ما يقرب من ألف كيلومتر، اقترح على صديقي وزميلي الدكتور (محمد حجازي)، أن نفتتح عيادة صغيرة في نفس القرية، التي أعمل بها، كمحاولة

لتدبير بعض الدخل، حتى يستيقظ ضمير العالم، ويمكنني صرف راتبي المتوقف من شهور وشهور..

وبكل ما تبقى من مدخرات فترة العمل في الصعيد، افتتحت العيادة، مع زميلي الدكتور (محمد حجازي) (أستاذ الطب الشرعي والسموم حاليًا).

وفي العيادة جلسنا (حجازي) وأنا، نحلم بالنجاح والثراء، وننتظر قدوم الزبائن..

أي زبائن..

ومضى شهر آخر..

وشهر إضافي..

وشهر رمضان..

ولم يتجاوز زبائن عيادتنا أصابع اليدين..

وبدلاً من أن تقدم لي العيادة مصدرًا للدخل، التهمت ما تبقى من مدخراتي، وجعلتني اصل إلى ما يصفه أولاد البلد (في وجه بحري طبعًا)..

بأنني <<على الحديدة>>..

بل لقد فكرت في الذهاب لسوق الحدادين، للبحث عن مشترٍ للحديدة نفسها..

وفي غمرة اليأس والفقر والإفلاس، توقفت مؤقتًا عن التدخين، وكنت أيامها مدخنًا شرهًا، استهلك بين ثمانين إلى مائة سيجارة يوميًا، ولكنني توقفت تمامًا عن التدخين؛ لأنني لم أكن أمتلك ثمن سيجارة واحدة، ورحت أسير من حيث أقيم إلى محطة القطار، حتى يمكنني توفير ثمن تذكرة (الأتوبيس)..

صحيح إن أسرتي كان يمكنها أن تساندني ماليًا، في تلك الفترة، لأن والدي (رحمه الله)، كان يمتلك مكتبًا للمحاسبة، يدر دخلاً جيدًا، إلا أنني كنت اشعر بالخجل، من طلب النقود من والدي، بعد أن أصبحت طبيبًا، وتقدمت لخطبة فتاة أحلامي، وسافرت للعمل في الصعيد..

كان من العسير بعد كل هذا، أن أخبره إنني مفلس تمامًا، ولا أملك شروى نقير (ولو أنني اجهل تمامًا ما هو ذلك النقير)..

وكعادتي، احتفظت بأزمتي في أعماقي، ولم يعلم بما أعانيه سوى خطيبتي، وصديق عمري (محمد حجازي)، الذي

أقرضني خمسة جنيهات، شعرت لحظتها أنها ثروة، ورحت أنفق منها بمنتهى الحذر، خشية أن تنفد، قبل أن يصل الراتب من دهاليز الحكومة..

وفى تلك الفترة أيضًا، وبينما كنت استعد لركوب قطار الدرجة الثالثة، لتتساوى مع الدرجة العاشرة آدميًا، ابتعت مجلة صغيرة، تصدر عن الهيئة العامة للكتاب، لأطالعها في القطار..

كان ثمنها أيامها قرشين فحسب (لو إن هذا الجيل يعرف ما هو القرش)، ولم أجد فيها في الواقع، ما يجذبني لقراءته، سوى شيئين اثنين، لا ثالث لهما..

المسابقة..

كانت تعلن عنها المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، حول كتابة قصص من الخيال العلمي للشباب، وكان آخر موعد للتقدم للمسابقة، هو آخر أيام يوليو، عام ١٩٨٤م.

وفى العيادة، ولأنني أعاني هناك من وقت فراغ ضخم كبير، رحت أضع بدايات قصة من قصص الخيال العلمي؛ أطلقت عليها أيامها اسم (أشعة ضاد)..

لم تكن الفكرة جديدة بالنسبة لي، فقد كنت أكتب أكثر من القصص والأفكار الخيالية في أثناء عملي في (أبو ديـاب شرق)، وكانت هذه واحدة من الأفكار، التي راقت لي أيامها، والتي بدت متناسبة تمامًا، مع مـا تطلبـه المؤسـسة فـي مسابقتهـا..

ولأن وقت الفراغ كبير، راحت الصفحات تمتلئ وتمتلـئ في سرعة، ولم تمض أيام ثلاثة، حتى كنت قد انتهيـت مـن كتابة القصة..

وبعد انتهائي منها، وضعتها في درج المكتب في العيادة، وسيطرت على حالة اليأس والإحباط، المصاحبة في المعتـاد للإفلاس والضيق، فأهملت أمرها، ونسيت أمر المسابقة كلها تمامـا..

وذات يوم، في بدايات الأسبوع الأخير من يوليو، فوجئت بزميلي الدكتور (حجازي) يعود من العيـادة، وهـو يحمـل القصة معه، ليخبرني أنها قصة جيدة، ويسألني لماذا كتبتها..

وشرحت له الأمر كله..

المسابقـة.. وقصص الخيال العلمي.. الخ..

وتحمس الدكتور (حجازي) كثيرًا للفكرة، وطلـب منـي تقديم القصة للمسابقة، وشاركه فـي هـذا زميلنـا (أشـرف صبحي)، إلا أن حالة اليـأس والإحباط، التي كنـت أعـاني منها، منعتني من مشاركتهما حماسهما، فأخبرتهما أن الأمـر لا يعنيني تمامًا، وأنني لا أظن إن قـصتي يمكـن أن تلقـى قبولاً، بل وتماديت إلى حد الاقتناع بأنه إجراء وهمي تمامًا، وأن الفائز فيها محدد مسبقًا..

ولأنني يائس وعنيد، تعاون الدكتور (محمد حجازي) مـع الزميل (أشرف صبحي)، وقاما بكتابة القـصة علـى الآلـة الكاتبة، باعتبار أنه لم تكن هناك أجهـزة كمبيـوتر منزليـة أيامهـا..

وفى يوم ٣٠ يوليو ١٩٨٤م، حاول الاثنان إقناعي بالسفر، في الصباح التالي، باعتباره أخر أيام المسابقة، لتسليمها إلـى المؤسسـة..

ولكنني رفضت تمامًا..

يومها، تصور كلاهما إن الأمر مجرد عندًا بحت، ولكنـه كان في الواقع خجلاً من إنني لا أملك ما يكفى للـسفر إلـى (القاهرة)، بعد أن التهمت المصروفات اليومية، التي أقتـصد

فيها إلى أقصى حد نصف ما أقرضني إياه (حجازي)، ولـم يكن في استطاعتي (نفسيًا)، أن اقترض قرضًا إضـافيًا، أيـًا كانت الأسباب..

المهم أن (أشرف) لم يرق له رفضي هذا، فقرر أن يسافر بنفسه إلى (القاهرة)؛ لتسليم القصة، وإنجاز بعض الأعمـال هناك، في الوقت نفسه..

والعجيب إنني لم أبال كثيرًا بهذا، وتصورت أنهما يبذلان جهدهما دون طائل!!

وسافر (أشرف) في اليوم التالي، وأنجز أعماله كلها أولاً، ثم اتجه إلى المؤسسة في نهاية اليوم، لتسليم القصة..

وفى اللحظة التي وصل فيها (اشرف) إلـى المؤسـسة، كانت تغلق أبوابها، في نهاية أخر اليوم من أيام العمـل فـي شهر يوليو، وأخر لحظة من لحظات التقدم للمسابقة..

ولكن القدر كان مصرًا على المضي حتى النهاية..

لقد رفض (أشرف) الانصراف..

وأصر على تسليم القصة، حتـى ولـو تعطـل إغـلاق المؤسـسـة..

ولأنه عنيد ومثابر، اضطروا لاستلام القصة منـه، بعـد اتصالهم هاتفيًا بأستاذي الأستاذ (حمدي مصطفى)، صـاحب ومدير المؤسسة، واستئذانه في هذا..

وهكذا.. كانت قصتي (أشعة ضاد)، هي أخر قـصة يـتم استلامها في المسابقة، في أخر دقيقة عمل، مساء ٣١ يوليـو ١٩٨٤م.

وأخبرني (أشرف) أنه قد سلم القصة، ولم أشـعر بـأدنى اهتمام في أعماقي، في غمرة يأسي وإحباطي..

كان كل همي أيامها أن أحصي ما تبقى مـن الجنيهـات الخمسة، وأن أضع خطة إنفاق المتبقي، بحيث يكفى لأطـول فترة ممكنة..

أما خطيبتي، فقد أخفت الأمر عن أهلها بالطبع، واكتفـت بأن نتنزه معًا سيرًا على الأقدام؛ لعلمها بأنني لا أمتلك ثمـن كوب شاي، في أي (كازينو) حقير..

وفى اليوم السابع من أغسطس، كنا نتنزه معـًا، عنـدما توقفت هي أمام سجادة أنيقة، في واجهة أحد محال القطـاع العام، وأبدت إعجابها الشديد بها، ورغبتهـا فـي اقتنائهـا،

ولكنني ذكرتها بأنها مخطوبة لأكثر أهل الأرض إفلاسًا، وأن عليها أن تمحو الفكرة من رأسها تمامًا..

ليلتها، عدت إلى حيث أقيم، وأنا أشـعر بإحبـاط ويـأس أكثـر، و...

وفوجئت باتصال هاتفي من والدي (رحمه الله)..

اتصال، اخبرني فيه أن خطابًا قد وصـل باسـمي، مـن (المؤسسة العربية الحديثة)، وسألني عما إذا أردت أن يفتحه، ويقرأه على مسامعي أم أنني أفضل قراءته بنفسي فيما بعد..

وبمنتهى اللهفة، طلبت منه قراءة الخطاب..

وكانت مفاجأة كبيرة..

الخطاب كان يحمل اسم المؤسسة، مع طلب بحضوري إلى مقرها الرئيسي في المنطقة الصناعية في حي العباسـية، للتعاقد بشأن القصة التي قدمتها..

قصة (أشعة ضاد)..

ولا يمكنني أن أصف مدى سعادتي ولهفتي أيامها، علـى الرغم إنني لم أتصور لحظة واحدة، أن هذا الخطاب سـيغير

مسار حياتي كلها.. وإنما كان مصدر سعادتي كله، هو أنـه سيعني جائزة..

والجائزة ستعني انفراجة مالية..

أخيـرًا..

وأنهيت المحادثة مع والدي، وجسدي كله يرقص فرحة..

ثم فجأة، ذهبت السكرة وجاءت الفكرة كما يقولون..

الخطاب يطلب منى السفر إلى مقر المؤسسة في (القاهرة) للتعاقد!! طب منين!!

وبسرعة، رحت أحصي ما تبقى معي، مـن الجنيهـات الخمسة المقدسة إياها..

كنت امتلك مائتين وخمسة وثلاثون قرشًا بالضبط..

ولأنني اجهل تمامًا تكلفة السفر إلى العاصمة، فقد رحـت أضرب أخماسًا في أسداس، حتى مطلع الفجر، عندما اتخذت قراري بالسفر، أيًا كانت النتائج..

وبعد الفجر بقليل، حملت حقيبة أنيقة، حوت صحيفة اليوم فقط، وخرجت مرتديًا حلة صيفية أنيقة، لأسير إلـى محطـة

القطار (توفيرًا للنفقات)، ثم ابتعت تذكرة (عودة يومية)، فـي أحد قطارات الدرجة الثالثة، باعتبار أن هذا أرخص وسـيلة للسفر إلى (القاهرة)، وكانت تساوي خمسة وأربعـين قرشـا بالتمام والكمال، في ذلك الوقت..

وكان هذا يعني أن أسافر (القاهرة)، وأنا لا احمـل فـي جيبي سوى مائة وتسعين قرشًا فحسب!!

وسافـرت..

ولأنني أرتدي حلة أنيقة أكثر مما ينبغي، وأحمل حقيبة لم يعتد حملها سوى رجال الأعمال والشخصيات المهمة في ذلك الوقت، أفسح لي الكل مكانًا كبيرًا، في قطار الدرجة الثالثـة غير المكيفة، وتعاملوا معي بحذر وتحفظ غيـر طبيعيـين، وكأنني مسئـول كبير، متنكرًا ليتابع أحوال الدرجة الثالثـة (أل يعني ده بيحصل!)..

وفى الثامنة إلا عشر دقائق من صباح الثامن من أغسطس ١٩٨٤م، وصلت إلى (القاهرة)، وغادرت محطـة مـصر، لأرى أمامي طوفانًا من البشر، لم أعتد رؤيته فـي مـدينتي (طنطا)، ولا في قلب الصعيد بالطبع..

ولأنني غريب، والغريب أعمى ولو كان بـصيرًا، كمـا تقول الحكم الشعبية القديمة، فقد رحت اسأل عن تلك المنطقة الصناعية في العباسية، التي لم أكن اعلم عنها، سـوى أنهـا تضم مستشفى الأمراض النفسية والعصبية الشهيرة..

سألت المارة، وسائقي الأتوبيسات، ورجال المرور، وحتى باعة الصحف..

ولكن أحدًا لم يكن يعلم أين تلك المنطقة الـصناعية فـي العباسيـة..

وأخيرًا، جاء سائق إحدى سيارات الأجرة، وأخبرني أنـه يعلم أين هي، ولكنه لا يعرف كيفية وصف الوصول إليها..

ولأنه خبيث، وأنا غر ساذج، قادم من الأقاليم، فقد وافـق على حملي إلى المكان مقابل جنيه فقط..

ومزقت قلبي كلمة فقط، التي نطقها بكل بساطة، دون أن يدرك إن ما يطلبه يتجاوز نصف ما أحمله بالفعل، ولكننـي وافقت، وركبت السيارة الأجرة، وأنا أمنـي نفـسي بـأنني سأحصل على جائزة، ستكفيني لركوب أتوبيس خـاص فـي أثناء عودتي (شوف السذاجة)..

المهم إن السائق قد حملني إلى ميدان (العباسية)، ثم أنزلني هناك، و(لهف) الجنيه، وبعدها سألته عما إذا كانت هذه هي المنطقة الصناعية، فأجابني مبتسمًا بأن هذه هي (العباسية)، ولكنه لا يعرف أين المنطقة الصناعية..

قالها، وتركني منصرفًا، وأنا ذاهل واجم، ألعن كل سائقي سيارات الأجرة في سري، وأبكي من أعمق أعماقي، على الثروة التي فقدتها دون طائل..

وبدأت رحلة بحث جديدة، ورحت اسأل مرة أخرى عن المنطقة الصناعية، حتى أرشدني إليها أحدهم، فقطعت الطريق إليها سيرًا على الأقدام، تحت شمس أغسطس اللطيفة، حتى غمر العرق جسدي كله، وبدأت أتساءل عما إذا كان الانتحار، في مثل هذه الأحوال، جريمة دينية وقانونية، أم أنه يعتبر واجبًا قوميًا لأمثالي..

وقبل أن أتوصل إلى قرار في هذا الشأن، وجدت نفسي أمام المؤسسة في قلب المنطقة الصناعية، فالتقطت نفسًا عميقًا، ودخلتها بكل الثقة، مرفوع الرأس، أسأل عن الأستاذ (حمدي مصطفى)، وأعلن إنني هنا بخصوص المسابقة، وبخصوص قصتي (أشعة ضاد)..

واستقبلني (عادل عبد الحميد)، مدير مكتب الأستاذ (حمدي) حينذاك، بالكثير من المودة والترحاب، وأخبرني أن الأستاذ (حمدي) لا يأتي في مثل هذه الساعة، وكانت الساعة التاسعة تقريبًا، ولكنه يأتي في الثانية عشر؛ لأنه ينصرف قبل نهاية اليوم بعد غروب الشمس، وطلب مني أن أعود في منتصف النهار..

وكانت صدمة بالنسبة لي..

أعود؟! هذا يعنى أن أذهب، وأن أقطع المسافة نفسها سيرًا على الأقدام، تحت شمس أغسطس، ثم أعود مرة أخرى، وقد فقدت مائة كيلو على الأقل، وتحولت إلى كائن ميكروسكوبي دقيق، وربما وحيد الخلية أيضًا!!

وبمنتهى الحزم، أخبرت عادل أنني لن أذهب، وسأنتظر الأستاذ حمدي، حتى ولو وصل بعد منتصف الليل..

ولم يعترض عادل قط، وإنما اصطحبني بمنتهى الجدعنة إلى حجرة مجاورة لحجرة مكتب الأستاذ حمدي، وأحضر لى مجموعة كتب لمطالعتها، وكوب شاى ساخن وتركنى هناك، وراح يطمئن على راحتي كل ربع ساعة تقريبًا، بمودة وشهامة زائدتين، حتى خيل إلي أنني أحد أقاربه،

ولست مجرد فائز فى مسابقة، أتى للتعاقد بشأن قصته، ويحلم بمكافأة تخرجه من أزمة مالية طاحنة..

وفى الثانية عشرة تقريبًا، وصل الأستاذ حمدي، ودعانى لمقابلته، وفى مكتبه استقبلني بنفس الترحاب والمودة البسيطة، ثم أخبرنى بأجمل شئ سمعته فى حياتى كلها..

أخبرنى أنه من بين عشرات أو مئات القصص، التى وصلت الى المؤسسة، بسبب المسابقة، لم يشعر بأن هناك قصة تناسب ما يريده، أكثر من قصتى (أشعة ضاد)..

وبعدها راح يسألني عن نفسي، وعن شهادتي، ثم سألني عن موعد عودتي إلى طنطا، وعن القطار الذى حجزت فيه تذكرة العودة..

وفى موقف كهذا، كان من العسير أن أخبره أننى أتيت بتذكرة عودة اليومية فى قطار من قطارات الدرجة الثالثة، وأن هذه القطارات العظيمة لا تحتاج إلى حجز، ولكن القفز فوق أحد المقاعد، والتشبث به إلى حد الاستماتة فحسب..

لذا، فقد أخبرته أننى ساعود فى قطار الثانية، ولم أكن أعلم حتى ما إذا كان هناك قطار إلى طنطا، فى الثانية أم لا..

وفى بساطة، طلب منى الأستاذ حمدي البقاء حتى الواحدة والنصف، على أن يرسل سيارته لتوصيلى الى المحطة فى ذلك الموعد..

لحظتها شعرت بالارتياح؛ لأن هذا يعنى أدخار التسعين قرشا المتبقية فى جيبى، خاصة وأن الاستاذ حمدي طوال حديثه معى، لم يذكر كلمة جائزة أو مكافأة، أو حتى كلمة مسابقة، ولو مرة واحدة..

لقد تحدثنا عن القصة، وعن أبطالها، وفكرة اختيار فريق علمي، وبخاصة الخبير النفسي فيه، ثم سالنى عما اذا كنت سأجعل ذلك الفريق، ورئيسه نور، هم أبطال كل الروايات التالية!

وكانت هذه هى أول إشارة إلى أن الأمر لا يقتصر على قصة واحدة،ىفازت بمسابقة محدودة، وإنما يمتد إلى سلسلة طويلة، لا أحد يعلم كم من العناوين ستندرج تحتها..

وبالنسبة لى، كما تصورت لحظتها، كانت إشارة إلى أنه لا توجد هناك جائزة أو مكافأة، وإنما تعاقد طويل الامد..

ومر الوقت بسرعة، ونحن نتحدث عن الروايات، والقصص، والمستقبل المنتظر، و........، و........

وفجأة، أشارت عقارب الساعة إلى الواحدة والثلث.. وكان هذا يعني أن أستعد للانصراف، للحاق بالموعد الذي حددته مسبقًا..

ونهضت بالفعل، لأخبر الأستاذ حمدي أنني سأنصرف، فصافحني بحرارة وهتف ينادي ويليام، ليقلني إلى محطة القطار، وهو يناقش معي موعد لقائنا التالي..

ولكن أيضًا دون إشارة واحدة إلى جائزة أو مكافأة، أو حتى قرشين ثمنًا لمواصلات..

وركبت السيارة مع ويليام، الذي انشغل في مناقشة أمر ما، مع أحد العاملين بالمطبعة، وأنا في السيارة، أفكر في القروش التسعين التي سأعود بها إلى طنطا، بعد أن تهورت، وأنفقت أكثر من نصف ثروتي، في مغامرة السفر إلى القاهرة.

وعاد ويليام إلى السيارة، واستعد للانطلاق بها، و.........

وجدت الاستاذ حمدي يخرج مسرعًا من المطبعة، ويهتف بـ (ويليام) أن يتوقف، ثم يتجه إليّ ويعتذر بشدة، على أن

الحديث قد جذبنا، فنسينا أن نوقع عقد اتفاق فيما بيننا، وبعدها التفت إلى ويليام، يسأله إن كان يحمل نقودًا أم لا..

ولقد أدهشني هذا كثيرًا، فلم أكن أعلم أيامها أن (ويليام) يعتبر السكرتير الشخصي للأستاذ حمدي، وتصورت أنه سائق سيارته فحسب، وتساءلت: كم يمكن أن يحمل السائق من نقود، وخيل إليّ أن الأستاذ حمدي سيعطيني قرشين للمواصلات فحسب، وضايقني هذا كثيرًا، وانا أرقبهما يتحدثان باهتمام، ثم يغيبان في المطبعة لحظات، وعاد ويليام بعدها إلى مقعد القيادة، في حين أعطاني الأستاذ حمدي مظروفًا منتفخًا، وهو يعتذر مرة أخرى عن عدم توقيع العقد، وأخبرني أنه يعتبر هذا المبلغ مقدم أتعاب، حتى نلتقي في المرة القادمة..

وانطلق ويليام بالسيارة، وكل ذرة في كياني تلتهب فضولاً..

ترى كم يحوي هذا المظروف المنتفخ؟!

وبحسبة بسيطة..

فإنه حتى ولو كان يحوي جنيهات (فرط)، فسيضم مبلغًا يفوق ما أملكه بالفعل بعشرات المرات..

واسترخيت فى مقعدى بارتياح، حتى وصل ويليام الى المحطة، وغادرت السيارة، وهو يسألنى عما إذا كنت أرغب فى الذهاب إلى أى مكان أخر، وبعدها حياني منصرفا..

وبينما ينطلق بالسيارة، أخرجت المظروف فى لهفة، وفتحته، وألقيت نظرة سريعة على محتوياته، قبل أن يخفق قلبى بمنتهى العنف.

فالورقة الأولى، كانت عبارة عن عشرين جنيهًا دفعة واحدة، ويالها من ثروة..

وصدقونى، لقد شعرت لحظتها أننى مليونير.. بل ملياردير، وبدا لى أننى قادر على منافسة (أوناسيس) نفسه..

وبكل حزم، أخرجت تذكرة العودة اليومية، في الدرجة الثالثة، والقيتها بطول ذراعى، معلنا انتهاء مرحلة الفقر والإفلاس..

وبمنتهى الثقة، اتجهت إلى نافذة حجز الدرجة الاولى، وطلبت تذكرة لمدينة طنطا..

كانت الساعة تقارب الثانية، وهناك قطار سينطلق الى طنطا، خلال أقل من نصف ساعة، ولكن لم تكن به مقاعد

خالية فى الدرجة الاولى؛ لذا فقد قررت الانتظار، حتى موعد قطار الرابعة، لأحصل على تذكرة درجة أولى مكيفة (عقد نفسية بقى)..

وفى انتظار موعد القطار، اتجهت إلى بائع الصحف، وابتعت كومة من الصحف والمجلات، لم تتجاوز كلها العشرين جنيهاً، بأسعار تلك الايام..

وكإثبات للثراء والفخفخة، اشتريت (خرطوشة سجائر إنجليزية) القيتها فى حقيبتى الفارغة، التى امتلأت بالكتب والصحف والمجلات، واتجهت إلى كافيتريا المحطة، التى لم أكن أجرؤ على الاقتراب منها من قبل، فى أثناء قدومى فى الصباح، وطلبت وجبة غذاء مع مشروب غازي، وجلست أطالع الصحف، مثلما سيفعل أى مليونير زميل..

المضحك أنني، وعندما ركبت القطار، وجلست فى مقعد من مقاعد الدرجة الاولى، التى كدت أنسى هيئتها، منذ أخر مرة عدت فيها إلى قنا، كانت مضيفة القطار تسأل عمن يرغب فى تناول وجبة غذاء، وعلى الرغم من كونى متخمًا من الطعام والشراب فى الكافيتريا، وجدت نفسى أطلب منها وجبة غذاء..

وانا أقول لنفسى فى أعماقى:

- (أيوه غدا.. هو إحنا فقراء ولا إيه)!

وجاءت وجبة الغذاء الثانية، التهمتها بشهية مفتوحة، حتى أنني وصلت إلى طنطا بكرش كبير، يشبه كرش أى مليونير محترم..

واتجهت على الفور إلى محل القطاع العام، وابتعت تلـك السجادة، التى كانت تحلم بها خطيبتى، وحملها عامـل إلـى سيارة الأجرة، التى أقلتنى إلى منزلها، الذى دخلته مثل (عنتر بن شداد)، وخلفى من يحمل نياق كسرى الحمرا..

أقصد السجادة اياها..

وكانت نقطة تحول كبرى، فى مسار حياتى كلها..

ففى زيارتى التالية للأستاذ حمدي، تغير اسم قصتى الـى (أشعة الموت)..

وحملت السلسلة اسم (ملف المستقبـل)، وقـدمت العـدد الثانى منها..

وبعدها توالت الأعداد..

وفي حذر فاتحت الأستاذ حمدي بفكرة السلسلة الجديـدة.. وأنا أخشى أن يأتى رد فعله ككـل مـن سـبقه ويـسمعنى محاضرة عن البطولة الفردية ومساوئها..

ولكنــه.. فاجأنـــي..

بعقــل متفتح بسيــط، وطلب فقط قراءة عـدد واحد من السلسلة، وقدّمت العدد الأول..

لسلسلة.. (رجل المستحيل)..

وبعد يومين بالضبط، سمعت من أستاذي كلمة، كان لهـا الفضل فى تغيير مسار حياتى كلها..

(على بركة الله)..

وهكذا ظهرت السلسلة التى ظللت أحلـم بهـا طـويلاً، وخططت لها أكثر..

سلسلة (رجل المستحيل)..

ثم توالت بعدها سلاسل أخرى..

وأخــرى..

وأخــرى..

وكان هذا هو (الفصل الأخير) من رحلة طويلة، مرهقة وجميلة فى الوقت نفسه..

رحلة طبيب فى صعيد مصر..

الجواني.. قـوي..

و(الفصل الأول) من رحلة أخرى..

استمرّت حتى لحظة كتابة هذه السطور....

رحلة أديب مع القلم..

والأدب...

والرجـل..

(رجـل المستحيـل)...

د. نبيل فاروق

محتويات الكتاب



من إصدارات المؤسسة العربية للإبداع
سلسلة
مسرح الجريمة
جريمة
في مجلس الشعب
اغتيال
د/ نبيل فاروق
اللعبة
JOKER
مسرحيات
الحب موتا
..وقصص أخرى
قصص قصيرة
صلاح الهادي
المؤلف/ أيمن سلامة